



العمل الثقافي من أجل الحرية

ترجمة
خليفة العزالي

تأليف
باولوفيري



**المعمل الثقافى
من أجل الحرية**



العمل الثقافي من أجل الحرية

ترجمة
خليفة العزالي

مكتبة
الكتاب
والفكر
والعلم

تأليف
باولو فريري



المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
طرابلس - ليبيا

الطبعة الأولى



حقوق الطبع محفوظة

للمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

هاتف: 40705 · 45565 - مبرق: 20032 - 20668

ص.ب: 8094 - طرابلس - الجماهيرية



أحمد يوسف النجار

تقديم

إن ظاهرة تحرر إنسان عالم الجنوب تشكل أقوى العوامل المؤثرة في حركة الإنسان المعاصر وتعطى للحركة الإنسانية مضمونها ، وتجسد وعى الإنسان لذاته ، وكذلك تعبر في ذات الوقت عن كل طموحات الإنسان المنبثقة عن اختياره الثورى والتي تهدف إلى الحرية كاختيار يرتضيه الإنسان لنفسه وللعالم الذى يصنعه .

ولكن فقط بالمخاطرة بالنفس تتحقق الحرية للإنسان ، الأمر الذى جعل من ظاهرة التحرر ظاهرة ثورية جماهيرية - الثورة إعلان عن الحرية - تعطى موضوعاً لحركة الإنسان معناه الواقعى والعقلانى ، وتعبر عن كل طموحاته المتجسدة فى الإدانة المنبثقة عن حركة الإنسان ذاته بذاته ومن

خلال اختياراته هو كإنسن ، والمتمثلة فى الثورة العقائدية التى ارتضاها كأداة نضالية يقتحم بها واقعه ، ويؤكد بها ومن خلالها تحرره ، ويواجه بها ومن خلالها الاستلابات الفكرية والسياسية والاقتصادية التى مارستها وتحاول تكريسها فيه القوى السالبة - عالم الشمال - لتمتلك من خلال ذلك التكريس كل الإمكانيات التى تعطى اوجودها شرعية الاستمرار فى استلاب الإرادة والتحكم والتوجيه وفرض لغة الصمت .

واتسمت ظاهرة التحرر وأداتها الثورية بسمه الرفض للمناهج الفكرية التى تحاول بالمقابل القوى السالبة فرضها على مجتمعات عالم الجنوب، عبر منظورها الفكرى المتمثل فى الطمس الإجبارى لمواهب الإنسان وقتل روح الإبداع والتألق فيه ، وكذلك التوجيه الإجبارى والتجهيل الإجبارى لمواهب الإنسان وقتل روح الإبداع والتألق فيه ، وكذلك التوجيه الإجبارى لأساليب من صنع أدوات الحكم قصد صب الإنسان فى قوالب مرسومة تمكئها من جعل الإنسان طوع إرادتها ، يتقبل قراراتها وقوانينها وكأنها قدر . .

وعلى ذلك فإن الرفض العقائدى للمناهج الفكرية الموروثة عن التطور الليبرالى والشيوعى كان يجب أن يكون رفضاً إيجابياً يستجيب لتغيرات الفكرية التى تحددت بسيطرة الإنسان على اللامتناهيات الصغرى والكبرى والمركبة مثل الذرة والفضاء والعقول الألكترونية . ومع ذلك قد أثبتت التجربة قصور إنسان عالم الشمال عن فهم أبعاد حركة نضال إنسان عالم الجنوب الذى استطاع من خلال مسارات ثورته الفكرية أن

يضع عالم الشمال والجنوب معاً أمام انعطاف تاريخي عميق
ينبىء بأن حركة الإنسان من أجل الحرية ستطوى عصر
الجمهريات - لينبثق من حركة الإنسان ذاتها - عصر
الجماهريات الذي يستهدف تحقيق سيطرة الجماهير على
مقدراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولتسقط بعمق
اختيارها الثوري كل أشكال الوصاية المنبثقة عن منهجية التفكير
في فهم وتجسيد سلطة الجماهير ، حيث هذه السلطة محك
اختيار تتحقق بها ومن خلالها سلامة التفكير الإنساني من
عدمه .

وضمن نماذج الفكر والممارسة ، وكنتيجة جدلية لا بد أن
تحدث ، سقطت وتسقط كل يوم أدوات الحكم في التجربة
الإنسانية السالبة ، فلا سلطة الفرد ، أو القبيلة ، أو الطائفة ، أو
الحزب استطاعت وبموضوعية أن تعطي للجماهير أداة حكم
تجد فيها ذاتها وحريتها وترجم حركتها وتجسد مضمون الإرادة
الجماهيرية مما أثبت وبتجربة حركة الإنسان ذاتها سقوط المنهج
الفكري المستمد من الشمال الرأسمالي والشيوعي ، ومن
محصلة هذا السقوط ، يسقط وهم التقسيم القسري للمجتمعات
البشرية ، حيث التخلف ليس وليد قصور مادي بقدر ما هو
قصور في إيجاد الحلول الموضوعية لمعضلات الإنسان ، وفي
مقدمتها معضلة أداة الحكم التي تمثل نتاجاً للعلاقات الإنسانية
في داخل المجتمعات وتشكل مضموناً لها . .

وعلى ذلك فالديمقراطية الشعبية بمعطياتها الجماهيرية ،
تشكل المدخل الحقيقي لفهم المنعطف التاريخي لعالمنا

المعاصر لأنها تركز المضمون الحقيقي للحرية ، ومن خلالها تتجسد سلطة الجماهير التي تترجم اختياراتها وعلاقاتها الطبيعية .

وعصر الجماهير ، الذي تكون فيه السلطة للجماهير ، ضمن معطيات الثورة الثقافية ، يستهدف إرساء مضامين الرفض الثوري للموروث الفكرى والحضارى فى هذا العالم المشوه ، وصولاً إلى بلورة المضامين الحقيقية المنبثقة عن الطبيعة الإنسانية ، بكل شمولية قيمها وإنسانية معاييرها ، بما يحدث فيها التوازن الطبيعى لتكيف الشخصية الإنسانية ومعطيات عصر الجماهير المتمثلة فى الحرية الحقيقية للإنسان .

ذلك أن عصر الجماهير يستهدف ترجمة اختيارات الإنسان فى المضامين الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتكيف علاقاتها فى تحقيق هوية الإنسان ، وإحداث التوازن فيها ، حتى تنعكس تلك العلاقات فى السلوك البشرى فى كافة مناحى الحياة سواء أكان سلوكاً سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً . وقد أثبتت التجربة العلمية للإنسان ملامح هذا الرفض من خلال حركته اليومية الفكرية والسياسية ، حتى الرفض سمة من سمات هذا العالم يحدد لحركة الإنسان فيه مساراته ، ويشكل محوراً لصراعه الفكرى والسياسى وتشابك فيه عوامل الرفض مع عوامل التغيير الثورى ، ليكون عصر الجماهير محصلة تشابكهما ، وصولاً إلى إرساء معالم التحرر الشمولى لإرادة الجماهير لتشكل من إرادتها أداة سياسية تنطلق من الجماهير بأداة الجماهير ، ولغاية الجماهير .

لقد أكدت معطيات ثقافة الصمت المفروضة من الشمال على الجنوب ، ومن خلال توجيهها المادى حاجة الإنسان إلى رفض تلك المعطيات إدراكاً منه لفقدان التوازن فى ذاتيته الإنسانية الأمر الذى أدى به إلى اتخاذ موقف الرفض لموقف الصمت ، إلا أن ظاهرة الرفض تلك ظلت حبيسة المحتوى السلبي للرفض فى بعض أجزاء العالم ، مما أنتج ظواهر سلبية اتسمت بسمات اللامبالاة واللاتنماء واللامسؤولية ، والتي مثلت فقدان التوازن بين الإنسان والعالم وحده الظواهر تعكس قصور المعطيات الحضارية ، وقصور قيمها الاجتماعية والأخلاقية مما رتب من خلال إدراك هذا القصور ومحاولة فهم هذه الظواهر أن اتجه الفكر الإنسانى إلى إعادة النظر فيما تعارف عليه بالمسلمات الفكرية التى كان يحملها الموروث الفكرى والثقافى المستمد من النظريتين الليبرالية والشيوعية ، فى محاولة لتقنين مظاهر الرفض ، وإعطائه المضمون الإيجابى ، بحيث يستطيع الإنسان من خلال منهج فكرى جماهيرى أن يواكب ظواهر الرفض ويقتنها ضمن معطياته الفكرية ، حيث بدأ الإنسان يتجه إلى إعطاء مضمون إيجابى لمواقف الرفض السلبية والصمت - خلال المراجعة العلمية والموضوعية والفهم العميق لمقولات النظرية العالمية الثالثة - الكتاب الأخضر .

وعلى الرغم من محاولة النقد الموجه التى قام ويقوم بها منظرو النظريتين من أجل استقطاب حركة الرفض الجماهيرى فى مضمونها الجديد ، ضمن إطارهما ، وفرض ثقافة الصمت بالمقابل إلا أن حركة الرفض العقائدى الجماهيرى من خلال

عمق إحساسها وإدراكها لرفض لمعطيات النظريتين وما يترتب عليهما من ممارسات فكرية وسياسية ، قد حال دون قدرة المنظرين الليبراليين والشيوعيين على استيعاب واحتواء حركة الرفض العقائدى ، وذلك لأن حركة الرفض الجماهيرى لم تولد إلا من خلال عمق المعاناة الفكرية والسياسية النابعة من المعاشة الفكرية والعملية ، مما حول ظواهر الرفض السلبية والصمت إلى ظواهر رفض إيجابية نمت نمواً عقائدياً من خلال استيعاب كل الموروث النكرى لكلتى النظريتين فتولد من خلال الصراع توجه عقائدى يتخذ من الموقف الرفض أرضية للظواهر الفكرية والسياسية بما يحظى باعتقاداً حقيقياً من موروث النظريتين الفكرى مبشراً بولادة فكر عقائدى جماهيرى يقضى على التعليم الإجبارى الذى هو أحد الأساليب القائمة للحرية والتكيف العمدى الذى هو طمس لمواهب وذوق وعقلية الإنسان ، والتعليم المنهجى الذى يمنعه من الاختيار الحر والإبداع والتألق ويتجه هذا الفكر إلى الحياة ذاتها ومعاشتها بحثاً عن النظرية التى تنهى الجهل والتجهيل وتقدم كل شىء على حقيقته وتحقق توازن القيم فى ذاتية الإنسان العارفة وتجعل المعرفة حق طبيعى لكل إنسان .

هذه وسواها من المبادئ الإنسانية تبرز من كتاب (باولو فريرى) العمل الثقافى من أجل الحرية وتعطى القارىء صورة لثقافة الرفض تختلف اختلافاً جوهرياً عن مفاهيم الثقافة السائدة ثقافة الصمت وهى تعد مساهمة علمية تنير الطريق على ضوء الفكر الإنسانى الذى يشر به الكتاب الأخضر ويعمل المركز

العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر على نشره من أجل
إقامة حضارة إنسانية أصيلة تبشر الإنسان بالحرية والسعادة . .

شعبة المكتبات والطباعة والنشر
بالمركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

المقدمة

أعتقد أنه من المهم بالنسبة لى وللقارىء أن أحاول منذ البداية ، أن أوضح بعض النقاط الجوهرية للفهم العام لأفكارى فى التربية باعتبارها عملاً ثقافياً من أجل الحرية . .

ومما يزيد ذلك أهمية أن أحد الأهداف الأساسية لهذا العمل ، حيث نناقش عملية تعليم الكبار ، هو أن أبين أنه إذا كان اختيارنا هو من أجل الإنسان فإن التربية هى العمل الثقافى من أجل الحرية ، وعليه فهى عملية معرفة وليست عملية استظهار . ولا يمكن تبرير هذه العملية فى كلها المعقد بنظرية آلية محضة ، ذلك أن مثل هذه النظرية لا تفهم التربية بشكل عام وتعليم الكبار بشكل خاص على أنها عملية معرفة . بالعكس فهى تختزل ممارسة التربية إلى مركب من التقنيات ،

ينظر إليها سداجة على أنها محايدة ، ويتم عن طريقها مفايسة العملية التربوية ، فى عملة فاصلة وبيروقراطية ..

ليس هذا بالتأكد الذى لا مبرر له . وفيما بعد سنوضح الفرق الجوهرى بين المعرفة والاستظهار ، وسيتوضح السبب الذى يجعلنا نولى عملية تبليم الكبار مثل هذه الأهمية ..

ولكن يجب أولاً أن نقول بعض الكلمات عن التكييف الاجتماعى - التاريخى الذى يحكم الفكر المطروح هنا ، وكذلك بيان ضرورة التفكير النقدى فى هذا التكييف .

يشكل الفكر واللغة من وجهة النظر اللاإزدواجية كلاً ويشيران دائماً إلى واقع الذات الفرد المفكرة ويولد الفكر - اللغة الصادقة فى العلاقة الجدلية بين الذات الفرد وواقعه التاريخى والثقافى الملموس .. وفى حالة العمليات الثقافية المغتربة (المستلبة) التى هى غير المجتمعات التابعة أو المجتمعات الشيئية يستلب الفكر - اللغة ذاتها ، ومن هنا كان حقيقة أن هذه المجتمعات ، لا تعكس فكراً صادقاً خاصاً بها خلال فترات الاغتراب الحاد . فالواقع كما هو مفكر فيه لا ينطبق والواقع المعاش موضوعياً ، بل بالعكس مع الواقع الذى يتخيل الإنسان المغترب نفسه فيه . هذا الفكر ليس أداة فعالة سواء فى واقعة الموضوعى ، الذى لا يرتبط بالإنسان المغترب كذات مفكرة أو فى الواقع المتخيل أو المؤمل . وعندما ينقسم هذا النوع من الفكر عن الفعل الذى يعيشه ضمناً الفكر الصادق ، يختفى فى الكلمات غير لمؤثرة والزائفة . ولما كان الإنسان

المغترب ينجذب بلا مقاومة ويتأثر بأسلوب المجتمع المدير - المسيطر ، تجده إنساناً كثير التوق إلى الماضي ، وغير ملتزم حقاً بعالمه . . . وهكذا يصبح التظاهر بالكينونة وليس الكينونة ذاتها إحدى رغباته المغترية فتفكيره وطريقته في التعبير عن العالم هي عموماً انعكاس لفكر وتعبير المجتمع المدير - المسيطر⁽¹⁾ تمنعه ثقافته المغترية من أن يفهم أن تفكيره وتعبيره الكوني لا يمكن أن يجد قبولاً خارج حدوده ما لم يكن مخلصاً لعالمه الخاص . . . ولن يكتسب فكره وتعبيره أهميتهما خارج ذلك العالم الآخر إلا بقدر ما يشعر تأملياً بعالمه ويعرفه عندما يكون قد خبره باعتباره وسيطاً للممارسة الجمعية المحولة .

وعلى كل فهذا الوعي بالذات وبالعالم ، ليس نتيجة اختيار شخصي صرف ، بل هو نتاج عملية تاريخية تقوم فيها المجتمعات الشبئية ، بعضها أسرع من الآخر بسبب التحولات البنوية التي تتعرض لها ، بالتشكيك في نفسها وتدرك أنها تابعة . إن هذه اللحظات التي تميز المرحلة الانتقالية لمثل هذه المجتمعات ، هي مشكلية وإبداعية على حد سواء . . . وهي تشهد ظهور الجماهير وحضورها الصاخب في العملية التاريخية بدرجات متباينة من الكثافة⁽²⁾ . .

وهذا الحضور الشعبي يخلق بطبيعة الحال ، أسلوباً حياتياً جديداً في المجتمع . . حيث يبدأ في الكشف عن التناقضات الداخلية والخارجية للمجتمع ، والتي ظلت فيما سبق غائبة عن الجماهير وما يسمى بالأنتلجنسيا (الطبقة المثقفة) على حد

سواء .. وبهذه الطريقة يبدأ فى الحكم على الثقافة المغتربة .. يبدأ بعض المثقفين فى تغيير فكرتهم السابقة عن المجتمع ، مكتشفين حقاً بنية المجتمع للمرة الأولى .. وهكذا فإن ما تحدده الغربية على أنه قصور جوهري لدى الجماهير الشعبية يعتبر موضوعياً نتج الغربية نفسها ، والتي يتم اكتشافها على أنها انعكاس لحالة الهيمنة .. وهكذا كلما تمت تعرية الثقافة المغتربة ، كلما كشف القناع عن الواقع القهري الذى ينشأ فيه .. ويبرز كذلك نموذج ثنائى .. وهكذا يعتمد المجتمع المغترب ككل على المجتمع الذى يضطهده والذى يخدم مصالحه الاقتصادية والثقافية .. وفى نفس الوقت نجد داخل المجتمع المغترب نفسه أن الصفوة السلطوية تفرض نظاماً اضطهادياً على الجماهير ، وهى فى بعض الحالات نفس الصفوة الخارجية وفى حالات أخرى هى الصفوة الخارجية نفسها وقد تحولت إلى مجموعات سلطوية محلية عن طريق نوع من التفشى (المخطط) ..

وفى كلتى الحالتين هناك بعد أساسى لهذه المجتمعات نتج عن المرحلة الاستعمارية حيث تأسست ثقافتها واستمرت كثقافة صمت .. وهنا يتضح لنموذج الثنائى خارجياً فالمجتمع المدير - المسيطر لا يسمع بالمجتمع المغترب ككل باعباره مجرد شيء .. وعلى العكس فالولاية الأم تقرر للمجتمع المغترب كلمته ومن ثم تسكته عقلياً .. وفى نفس الوقت تخضع الصفوة السلطوية الجماهير داخل المجتمع المغترب إلى نفس النموذج من الصمت ..

وعندما تتجاوز الجماهير مرحلة الانبهار بظهورها ويعلنون عن طريق فعاليتها بالمطلب تلو المطلب أنها تقترب من مرحلة التنظيم الكافي لتتمكن من تحطيم الخانع ، تحاول الصفوة السلطوية بقوة أن توقف هذه العملية . . وإذا ما افتقدت الصفوة القوة لإعادة الجماهير إلى صمتها الأصلي ، أخذ المجتمع المدير على عاتقه أن يقوم بذلك سواء تمت دعوته ، أم لا . . ويسبق القمع لإعادة الجماهير إلى صمتها ويرافقه مجهود غير عادى لتحديد كل فكر - لغة يستخدم مثل الغربة ، الهيمنة ، الاضطهاد ، التحرر ، الأنسة ، والاستقلال الذاتى بأنها شيطانية . . ولدفع هذا المجهود نحو جماهير الشعب الحسنة النية والساذجة منها ، لا بد من الكشف عن الغموض الذى يكتنف هذه الكلمات وتبيان مدلولاتها الحقيقية فالتعبير عن المقولات الموضوعية ، الاجتماعية والتاريخية والسياسية لا تسمح طبيعتها المأسوية فى العالم الثالث لأحد أن يكون محايداً . .

وفى الوقت الذى كان يتم فيه الكشف عن حقيقة ثقافة الصمت بدأت كرجل من العالم الثالث ، إحكام طريقة ليست ميكانيكية من أجل تعليم الكبار بل نظرية تربوية ولدت فى رحم ثقافة الصمت نفسها - نظرية يمكن أن تصح فى الممارسة لا صمتاً للثقافة ، بل إحدى أدوات ذلك الصوت الذى ما زال تائهاً . .

إن التفكير المتطور هنا ليس بالطبع مجرداً من تأثير الفكر الآخر ، فهذا مستحيل . . نحن لم نرفض أبداً الإسهامات

الإيجابية من أناس من العالم الثالث أو المجتمعات المديرة . .
إلا أن المواجهة مع عالمنا الخاص قد علمتنا أن الأفكار القادمة
من جزء آخر من العالم لا يمكن زرعها ببساطة . . يجب أن
تخضع أولاً لما يسميه الأستاذ في كتابه بالاختزال
الاجتماعي . . ولسوء الحظ فإن مثل هذه النظرية العلمية
الصارخة ليست واسعة الانتشار بعد مع العالم الثالث . .

وبالنظر إلى أنه عالم صمت فقد ظل غير قادر- ليس
بسبب عدم القدرة الوجدانية (الأنثولوجية) أو لا لوجود مثل هذا
الشيء- على أن يتخذ وضعه عالم من له صوت عالم هذا
موضوع اختياراته ويتصور قدره بحرية . . ومع ذلك فقد بدأ
العالم الثالث يسعى وبسرعة مأساته . . وقد بدأ يفهم أنه لا
يمكن تحقيق الحاجة إلى التنمية ، والتي أثبتت حولها دعاية
كبيرة ، تحت ظروف الصمت المستمرة أو تحت صوت
خادع . . . إذا تمت مثل هذه الظروف لا يمكن تحقيق أكثر من
مجرد التحديث . .

ومن ثم فإن موضوع العالم الثالث الجوهرى - ضمناً
يعنى مهمة صعبة ولكن ليست مستحيلة بالنسبة لشعوبه - هو
انتزاع حقه فى أن يكون له صوت ، انتزاع حقه فى أن يقول
كلمته . . وعندئذ فقط يمكن أن تصبح كلمة أولئك الذين
يسكتونه أو لا يعطونه أكثر من مجرد الوهم بالكلام أن تصبح
كلمته صادقة . . ولن يخلق العالم الثالث الظروف التى لا
مقصود لها الآن لأولئك الذين يسكتونه لكى يدخلوا معه فى

حوار ألا يتحقق بحق في أن يقول كلمته ، وحقه في أن يكون ذاته وأن يتولى توجيه قدره هو . .

وباعتباري من أبناء هذا العالم ممن عاشوا تجارب هامة ، إن لم تكن مؤذية جداً ، لأنني تجرأت على أن يكون لي صوت في ثقافة الصمت ، فإن لدى رغبة واحدة : وهي أن يتصادف تفكيري تاريخياً مع تملل كل أولئك الذين يناضلون من أجل أن يكون لهم صوتهم الخاص بهم ، سواء أكانوا يعيشون في تلك الثقافات التي أسكتت كلية أو في القطاعات الصامتة من الثقافات التي تقرر وتحدد صوتهم . .

الفصل الأول

عملية تعليم الكبار

كعمل ثقافي من أجل الحرية^(١)

تتضمن كل ممارسة تربوية ضمناً مفهوماً عن الإنسان
والعالم

علمتنا الخبرة ألا نفترض أن ما هو واضح للعيان مفهوم
بوضوح .. وكذلك الأمر بالنسبة للحقيقة البديهية التي تبدأ
بها ، كل الممارسات التربوية تقتضى ضمناً موقفاً نظرياً من
طرف المربي .. وهذا الموقف ينطوي بدوره أحياناً بوضوح أكثر
وأحياناً أقل - على تفسير للإنسان والعالم .. ولا يمكن أن
يكون غير ذلك .. ذلك أن عملية توجه الإنسان في العالم لا
تشمل تداعى الصور الحسية وحسب كما هو الحال بالنسبة
للحيوانات .. فهي تتضمن وقوف كل شيء ، الفكر - اللغة أى
إمكانية عملية المعرفة عن طريق ممارسة الإنسان ، والتي يحول
بها الواقع .. ولا يمكن للإنسان أن يفهم عملية التوجه هذه

كمجرد حدث ذاتي ، ولا كحدث موضوعي ميكانيكي ، ولكن فقط باعتباره حدثاً تتوحد فيه الذاتية والموضوعية . . إن التكيف فى العالم مفهوم على هذا النحو ، يضع مسألة الهدف من الفعل فى مستوى الإدراك النقدى للواقع .

وإذا كان التكيف فى العالم يعنى بالنسبة للحيوانات التهيؤ مع العالم ، فإن التكيف بالنسبة للإنسان يعنى أنسنة العالم وذلك بتحويله . . ذلك أنه بالنسبة للحيوانات ليس هناك مفهوم تاريخي ، وليست هناك اختيارات أو قيم ، بل هناك بعد تاريخي وقيمي على حد سواء . . فلدى الإنسان الإحساس بالمشروع يقابلها الروتين الغريزي لدى الحيوان . .

إن نشاط الإنسان غير الهادف بصرف النظر عما إذا كانت الأهداف صائبة أم خاطئة ، ميتولوجية أو غير ميتولوجية ساذجة أو نقدية ، ليس ممارسة . ولو أنه قد يكون تكيفاً فى العالم . . وإذا لم تكن نشاطات الإنسان ممارسة ، فسيكون نشاطاً جاهلاً بكل علميته ذاتها وبهدفه . . ويشكل الترابط الداخلى بين الوعي بالهدف والعملية أساساً لتخطيط النشاط الفعلى ، وهذا يتضمن الوسائل . . والأهداف والخيارات القيمة . .

يجب أن ينظر إلى تعليم القراءة والكتابة للكبار وأن يحلل ويفهم بهذه الكيفية وسيكتشف المحلل الناقد فى الوسائل والمقررات النصوص التى يستخدمها المربون والطلبة خيارات قيمة عملية تنم عن فلسفة نحو الإنسان سواء أكانت محددة بشكل جيد أو سىء ، ويغض النظر عن كونها متماسكة أم لا . . ولا يمكن لأحد أن يختزل التعليم بين الكبار إلى نشاط

ميكانيكى مرضٍ إلا إذا كان من ذوى العقلية الميكانيكية التى يسميها ماركس « بالمادية الفاضحة » إن مثل هذه النظرة الساذجة لن تكون قادرة على إدراك فهم أن التكتيك ذاته كأداة للإنسان فى تكيفه فى العالم ليست محايدة ..

وعلى أى حال فسنحاول أن نثبت بالتحليل بداهة حكمنا .. دعونا نتأمل قضية الكتب التمهيدية المستعملة كمفردات/نصوص أساسية لتعليم الكبار القراءة والكتابة .. ولنقترح إضافة إلى ذلك نوعين متميزين : كتاب تمهيدى سبىء الإعداد وآخر جيد ، وفقاً لمعايير الأسلوب ذاته .. بل فلنفترض أن مؤلف الكتاب التمهيدى قد أسس اختياره لمفرداته التوليدية على معرفة سابقة بأى الكلمات أكثر رنيناً لدى المتعلم (وهى ممارسة غير موجودة عموماً ، ولو أنها موجودة) .

لا شك أن مثل هذا المؤلف قد تجاوز كثيراً وبالفعل زميله الذى يؤلف كتابه التمهيدى من كلمات يختارها بنفسه من مكتبه .. ولكن كلا المؤلفين ، على أى حال متطابقين بطريقة جوهرية .. ففى كلتى الحالتين يفككان الكلمات التوليدية المتوفرة ويخلقان من مقاطعها كلمات جديدة .. ويشكل المؤلفان من هذه الكلمات جملاً بسيطة ، ورويداً ، قصصاً صغيرة ، أو ما يسمى دروس القراءة .

ولنقل أن مؤلف الكتاب التمهيدى الثانى ، وقد خطا خطوة إلى الأمام ، يقترح أن يستهل المدرسون الذين يستعملونه مناقشات مع طلابهم حول كلمة أو أخرى ، أو جملة أو نص .

وإذا تأملنا فى هاتين الحالتين الافتراضيتين فإنه يمكننا أن نستنتج شرعياً أن طريقة الكتاب التمهيدية ومحتواه يحتويان ضمناً مفهوماً عن الإنسان سواء أقر به المؤلفون أم لا . . ويمكن إعادة تركيب هذا المفهوم من زوايا متعددة . . ونبدأ بحقيقة أنه مما يكمن فى فكرة الكتاب واستعماله أن المدرس هو الذى يختار المفردات ويفرضها على المتعلم . . ومن حيث أن الكتاب هو الشيء الوسيط بين المدرس والطلاب ، وأن الطلاب سيملأون بالمفردات التى اختارها المدرسون ، يمكن للمرء أن يكتشف ببساطة أن بعداً أولياً مهماً عن صورة الإنسان قد بدأ يبرز هنا . . إنها صورة لإنسان فارغ كالوعاء ويجب أن يملأ أو يغذى لكى يعرف . . وقد قاد هذا المنطق (سارتر) عند نقده لفكرة أن تعرف هو أن تأكل فى أن يصرح « آه يا فلسفة التغذية » .

نجد هذا المفهوم الهضمى للمعرفة الشائع جداً فى الممارسات التربوية الحالية ، بوضوح تام فى الكتاب التمهيدى . . حيث يعتبر الأمين « ناقصى تغذية » وبالمعنى الحرفى الذى يعانى منه الكثيرون منهم فعلاً ، ولكن لأنهم يعتقدون أن الخبز الروحى وتمشياً مع مفهوم المعرفة كغذاء ، تعد الأمية عشياً ساماً مدمراً وموهناً للأشخاص الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة . . ومن ثم يقال الكثير عن « استئصال الأمية » لعلاج المرضى (أنظر مقالى أبجدة الكبار) .

وبهذه الطريقة عندما تجرد الكلمات خاصيتها كعلامات

لغوية مكونة للفكر واللغة لدى الإنسان ، تتحول إلى مجرد مخزونات معجمية الخبز الروحي الذى يأكله ويهضمه الأميون ..

وربما فسرت هذه النظرية الغذائية لمعرفة الطبيعة الإنسانية لبعض حملات تعليم الكبار فى أمريكا اللاتينية .. فإذا كان الملايين من البشر أميين يتلهفون جوعاً للحرف ويتعطشون للكلمة فيجب أن يؤتى إليهم بالكلمة لإنقاذهم من الجوع والعطش ووفقاً للمفهوم الطبيعى للوعى المتضمن فى الكتاب التمهيدى ، يجب أن تودع الكلمات لأن تولد من المجهود الإبداعي للمتعلمين .. إن الإنسان كما يفهم فى هذا المفهوم كائن سلبى ، وهو هدف عملية تعليم القراءة والكتابة ، وليس موضوعها .. وباعتباره هدفاً فإن مهمته هى أن يدرس ما يسمى بدروس القراءة ، وهى فى الواقع تكاد تكون مغتربة ومغتربة كلياً ، أولاً إن علاقتها بسيطة ، هذا إن حدث ، بالواقع الاجتماعى - الثقافى للطالب ..

وستكون حقاً دراسة مثيرة للاهتمام لو سنحت أن نحلل نصوص المطالعة/القراءة المستخدمة بحملات تعليم الكبار الخاصة أو الرسمية فى أرياف ومدن أمريكا اللاتينية .. وسوف لن يكون غريباً إن نجد بين مثل هذه النصوص مجالات وقراءات كالعينات العشوائية التالية :

« الجناح للطير ..

أيف رأت العنباية

الديك يصيح ..
الكلب ينبج ..
مارى تحب الحيوانات ..
جون يعتنى بالأشجار ..
إسم والد تشارلز أنتونيو .. تشارلز طفل جيد ،
حسن السلوك وجد ..
إذا طرقت مسماراً ، كن حذراً كي لا تهشم أصبعك ..

لم يعرف بيتر كيف يقرأ .. كان بيتر مكسوفاً فى يوم من
الأيام ذهب بيتر إلى المدرسة وسجل إسمه بالدورة الليلية ..
كان مدرس بيتر جيداً جداً .. والآن بيتر يعرف كيف يقرأ ..
أنظر إلى وجه بيتر (هذه الدروس عموماً موضحة) .. بيتر
يبتسم .. إنه رجل سعيد .. لقد حصل على عمل جيد ..
يجب على الجميع أن يحذو حذوه » .

إن بالقول أن بيتر يبتسم لأنه يعرف يقرأ ، وأنه سعيد لأن
لديه الآن عمل جيد ، وأنه مثال يقتدى به الجميع ، يؤسس
المؤلفون علاقة بين معرفة القراءة والحصول على أعمال
جيدة ، والذي لا يمكن فى الحقيقة تأييده .. أن هذه السذاجة
تعكس ، على الأقل ، الفشل لا فى تركيز الأمية وحسب ، بل
والظواهر الاجتماعية عامة .. وقد يعترف إدراك مثل هذا
التناول/النظرة بأن مثل هذه الظواهر موجودة ولكنها لا تستطيع
أن تدرك بتبين المجتمع الذى توجد فيه .. وكما لو أن هذه
الظواهر كانت أسطورية تتجاوز وتفوق المواقف الملموسة ، أو
نتائج النقص الجوهري لدى طبقة معينة من البشر ولما كانت

هذه النظرة غير قادرة على فهم الأمية المعاصرة على أنها مظهر
لثقافة الصمت ، مرتبطة مباشرة بالبنى المتخلفة (غير النامية)
فإنها لا تستطيع أن تقدم استجابة موضوعية ، نقدية لتتحدى
الأمية .

إن مجرد تعلم الإنسان القراءة والكتابة لا يحقق
المعجزات ، وإذا لم تكن هناك وظائف كافية للقادرين على
العمل ، فإن تعليم المزيد من البشر القراءة والكتابة لن يخلق
لها المزيد من الوظائف . .

ويقدم أحد كتب المطالعة هذه من بين دروسه النصين
التاليين فى صفحتين متاليتين دون ربطهما . .

أما النص الأول فهو عن الفاتح من سبتمبر عيد العمال
الذى يحيا فيه العمال وترى نضالاتهم . . وهو لا يبين كيف أو
أين يتم أحيائها ، أو ماذا كانت طبيعة الصراع التاريخى . .

والموضوع الأساسى للدرس الثانى هو العطلات يقول إنه
« فى مثل هذه الأيام يجب على الناس أن يذهبوا إلى الشط
للسباحة وليأخذوا حمام شمس . . وعليه فإذا كان الأول من
سبتمبر عطلة ، وإذا كان على الناس أن يذهبوا إلى الشط فى
العطلات » ، فالاستنتاج هو أن يذهب العمال للسباحة فى يوم
عيد العمال ، بدلاً من الاجتماع بنقاباتهم فى الميادين العامة
لمناقشة مشاكلهم . .

إذن يبين تحليل مثل هذه النصوص رؤية مفرطة فى

التبسيط تجاه الإنسان والعالم ، والعلاقة بين الإثنين ، وعملية محو الأمية التي تنكشف في ذلك العالم ..

إن فئات لغوية ، عندما تستظهر ميكانيكياً وتكرر تجرد من بعدها الحقيقي كفكر - لغة في تفاعل ديناميكي مع الواقع .. وعندما تقفز بهذا الشكل من تكون تغييرات صادقة في العالم ..

لا يعترف مؤلفوها بوجود القدرة لدى الطبقات الفقيرة على المعرفة بل وحتى على خلق النصوص التي قد تعبر عن فكرهم - لغتهم في مستواهم وإدراكهم للعالم .. وهكذا يكرر المؤلفون بالنصوص ما يفعلونه بالكلمات ، أى أنهم يقدمونها لوعي المتعلمين كما لو كان حيزاً فارغاً مرة أخرى المفهوم « الهضمي » .

وأكثر من ذلك أن يكشف الإدراك اللابنيوي للأمية المنعكس في هذه النصوص النظرية الزائفة الأخرى عن الأميين باعتبارهم هامشين .. ومع ذلك ، فإن على الذين يعتبرونهم هامشين .. أن يعترفوا بوجود واقع يكونون هامشين بالنسبة له - لا الفراغ المادي فقط ، بل الواقع التاريخي والاجتماعي ، والثقافي والاقتصادي - أى البعد البنيوي للواقع .. وبهذه الطريقة لا بد من الاعتراف بالأميين ككائنات خارج شيء ما أو هامشية بالنسبة لشيء ما ، حيث أنه من المستحيل أن تكون هامشياً في فراغ .. إلا أنه أن تكون « خارجي » أو هامشي تقتضي بالضرورة حركة من يسمى هامشياً من المركز ، حيث كان باتجاه المحيط الخارجي عن هذه الحركة ، والتي هي فعل ، لا تفترض مسبقاً بدورها وجود فاعل بل أسباباً مبررة ، كذلك ..

وإذا اعترفنا بوجود أناس خارج أو على هامش الواقع البنيوي ، فيبدو من المشروع أن نسأل من هو صانع هذه الحركة من مركز البنية إلى هامشها ؟ .. وهل يقرر من يسميهم بالهامشيين - بما في ذلك الأميون - الحركة باتجاه محيط المجتمع ؟ .. وإذا كان الأمر كذلك فالهامشية خيار يشكل ما يقتضيه ذلك الجوع ، المرض ، كساح الأطفال .. الألم .. القصور العقلي .. الحياة والموت .. الجريمة .. الإباحية .. القنوط .. استحالة الكينونة .. الوجود .. وفي الحقيقة ، على كل حال ، من الصعب أن يقبل بأن 40% من سكان البرازيل ، 90% تقريباً من سكان هايتي ، 60% من سكان بوليفيا ، وحوالي 40% في البيرو وحوالي 70% في جواتيمالا ، قد اتخذوا ذلك الاختيار المأساوي بأنفسهم ليكونوا هامشيين كأمين (أنظر تقرير اليونسكو) .

ومن ثم فإذا كانت الهامشية ليست بالاختيار ، فإن الإنسان الهامشي مطرود من النظام الاجتماعي والإبقاء عليه خارجه وعليه فهو هدف للعنف ..

إلا أن البناء الاجتماعي ككل لا يطرد ، كما أن الإنسان الهامشي كائن في الخارج على العكس فهو كائن في الداخل ضمن البناء الاجتماعي ، وفي علاقة تابعة بالنسبة لأولئك الذين نسميهم زوراً كائنات مستقلة ، كائنات غير صادقة من أجل ذاتها ..

قد تقول نظرة أقل صرامة ، نظرة أكثر تبسيطاً وأقل نقدية ، أكثر تقنية ، أنه لم يكن من الضروري التفكير فيما نعتبره قضايا غير مهمة مثل الأمية وتعليم الكبار القراءة

والكتابة .. وقد تضيف مثل هذه النظرة أن مناقشة مفهوم الهامشية كان تمريناً أكاديمياً لا ضرورة له إلا أن الواقع غير ذلك .. فالقبول بالأمي كشخص يوجد على حافة المجتمع ، سيقودنا إلى النظر إليه بنلى أنه إنسان مريض تكون معرفة القراءة والكتابة الدواء الشافى له ، الذى يمكنه من العودة إلى البناء السليم الذى انفصم عنه .. وسيصبح المربون مستشارين خيرين ، يطوفون ضواحي المدن بحثاً عن الأميين الفارين من الحياة الرعدة ، لإعادتهم إلى صدر السعادة وذلك بالإنعام عليهم بمئة الكلمة ..

وفى ضوء مثل هذا المفهوم - الواسع الانتشار لسوء الحظ - لا يمكن لبرامج تعليم القراءة والكتابة أبداً أن تكون جهداً وعملاً من أجل الحرية ، وسوف يشكو فى ذات الواقع الذى يحرم الإنسان من حقه من أن يتكلم بحرية - ليس الأميين فحسب بل كل أولئك الذين يعاملون كأشياء فى علاقة تابعة ..

وفى الحقيقة فهو لاء البشر سواء أكانوا أميين أم لا ، ليسوا هامشين .. وما قلناه آنفاً قابلاً للتكرار : إنهم ليسوا « كائنات خارجة عن » ، إنهم كائنات من أجل الآخرين .

وبالتالى فإن حل مشكلتهم لا يكمن فى أن يصبحوا فى الداخل ولكن بشراً يحررون أنفسهم ، ذلك أنهم ليسوا فى الواقع هامشين بالنسبة للبناء الاجتماعى ولكنهم بشر مضطهدون داخله .. وباعتبارهم بشراً مغتربون ، فإنهم لا يستطيعون التغلب على تبعيتهم بالاندماج فى نفس البناء المسؤول عن تبعيتهم .. ليس هناك من طريق للألسنة - ألسنتهم وألسنة كل

من عداهم على حد سواء - غير التحويل الحقيقي للبناء السالب للإنسانية .

ومن وجهة النظر الأخيرة هذه لا يعود الأمر بعد شخصاً على حافة المجتمع ، شخصاً هامشياً ، بل بالعكس ممثلاً لشريحة اجتماعية خاضعة للهيمنة يعارض عن وعى أو عن غير وعى أولئك الذين يعاملونه ، فى نفس البناء ، على أنه شيء . . وهكذا أيضاً لن يصبح تعليم الإنسان القراءة والكتابة مسألة غير ذات أهمية ، أو مسألة استظهار كلمة مغتربة بل تمرين صعب فى تسمية العالم . .

فى الافتراض الأول ، تفسير الأमीين على أنهم بشر هامشيون بالنسبة للمجتمع ، يعزز عملية تعليم القراءة والكتابة تحويل الواقع إلى أسطورة وذلك بالإبقاء عليه مهماً وبكل « الوعى الفارغ » يعد ولا يحصى من الكلمات والعبارات المنفرة وبالمقابل فى الافتراض الثانى - تفسير الأमीين كبشر مضطهدين ضمن النظام - فعملية تعليم القراءة والكتابة ، كعمل ثقافى من أجل الحرية ، هى عملية معرفة يأخذ فيها المتعلم دور الذات العارفة فى حوار مع المربى . . ولهذا السبب ، فإنه لمجهود شجاع أن نعرى الواقع من الخرافة وهى عملية يبدأ من خلالها البشر الذين كانوا فيما مضى مغمورين فى الواقع يبدأون فى الظهور لكى لا يدخلوا فيه أنفسهم من جديد بوعى نقدى . .

وعليه يجب على المربى أن يسعى من أجل استيضاح أكثر أحياناً دون معرفته الواعية ، لما ينير طريق فعله / نشاطه هذه هى الكيفية الوحيدة التى يمكن بها للمربى أن يأخذ على

عائقه بالفعل دور إحداه، هذا الفعل وأن يظل ثابتاً فى هذه العملية . .

عملية محو الأمية بين الكبار كعملية معرفة :

لكى تكون عملية معرفة تتطلب عملية محو الأمية عند الكبار علاقة حوارية بين المدرسين والطلبة . . فالحوار الصادق يوحد الذوات مع بعضها فى معرفة/ إدراك موضوع/ شىء قابل للمعرفة يتوسط بينهما . .

وإذا كان لتعليم القراءة والكتابة أن يكون عملية معرفة ، فيجب على المتعلمين أن يأخذوا على عاتقهم من البداية دور الذوات المبدعة فالمسألة ليست استظهار وتكرار مقاطع وكلمات وعبارات معينة بل مسألة التفكير نقدياً فى عملية القراءة والكتابة ، وفى الأهمية العميقة للغة . .

وبقدر ما اللغة مستحيلة بدون فكر ، وبقدر ما اللغة والفكر مستحيلان بدون لعالم الذى يشيران إليه ، فالعالم الإنسانى هو أكثر من مجرد معجم - إنه الكلمة - والفعل . . يجب أن تشمل الأبعاد المعرفية للقراءة والكتابة علاقات الإنسان بعالمه . . هذه العلاقات هى مصدر الجدل بين النتائج التى ينجزها الإنسان فى تحويله للعالم والتكيف الذى تمارسه هذه النتائج بدورها على الإنسان . .

يجب أن يكون تعلم القراءة والكتابة فرصة للإنسان أن يعرف ما الذى يعبر الملائط بالكلمة فعلاً إنها نشاط بشرى

يتضمن التفكير والفعل . . وهو تعلم (القراءة والكتابة) فى حد ذاته حق إنسانى أساسى وليس امتيازاً لقلّة ، كما أشير فى مقالى « أبجدية الكبار » . . منطلق الكلمة ليس عملية صادقة إذا لم يرتبط فى نفس الوقت بالحق فى الإبداع من جديد ، وفى اتخاذ القرار والاختيار ، وفى النهاية بالحق فى المشاركة فى العملية التاريخية للمجتمع . . « فى البدء كانت الكلمة » فى ثقافة الصمت الجماهيرى خرساء ، أى أنها ممنوعة من المشاركة المبدعة فى تحولات مجتمعتها ومن ثم فهى ممنوعة من الكينونة/ الوجود . . وحتى إذا كان فى مقدورها أحياناً أن تقرأ وتكتب لأنها علمت من خلال حملات محو الأمية الخيرية - ولكن غير الإنسانية فهم مع ذلك غرباء ، عن السلطة المسؤولة عن صمتهم . .

يعرف الأميون أنهم بشر ملموسون ويعرفون أنهم يفعلون الأشياء . . غير أن ما لا يعرفه فى ثقافة الصمت - التى يوجد من فيها ككائنات غامضة مزدوجة - هو أن فعاليات الإنسان فى حد ذاتها محولة (تؤدى إلى التحول) ، إبداعية وتؤدى إلى الإبداع من جديد . . وبالنظر إلى غلبة خرافات هذه الثقافة ، بما فى ذلك خرافة دونيتهم الطبيعية فهم لا يعرفون أن فعالياتهم فى العالم محولة (تؤدى إلى التحول) أيضاً . . ولما كانوا قد منعوا من الإدراك البنىوى للوقائع التى تعنيهم فهم لا يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يملكوا الخيار أى أنه لا يمكنهم ممارسة حق المشاركة عن وعى فى التحول الاجتماعى - التاريخى لمجتمعهم ، لأن عملهم ليس ملكاً لهم . .

يمكن القول (وسأوافق أنا) من غير الممكن التعرف على كل هذا بمعزل عن الممارسة ، أى بمعزل عن التفكير والفعل ، وإن محاولة ذلك ستكون مثالية محضة . . غير أنه من الصحيح أيضاً أن الفعل فى شىء ما يجب أن يحلل نقدياً لكى يفهم كل منا الشىء ذاته وفهمنا الشىء تقتضى عملية المعرفة حركة جدلية تتحرك من الفعل إلى التفكير ومن التفكير فى الفعل إلى فعل جديد . . . ولكى يعرف المتعلم ما لم يعرفه من قبل ، يجب عليه أن ينشغل بعملية تجريد حقيقية يمكنه عن طريقها التفكير فى كل الفعل - الشىء ، أو بشكل أكثر عمومية ، التفكير فى أشكال الـ " فى العالم . . وفى عملية التجريد هذه ، تطرح عليه المواقف الممثلة لكيفية تكييف المتعلم لنفسه فى العالم باعتبارها أهدافاً لنقده . .

وباعتبار عملية محو الأمية حدثاً يستدعى التفكير النقدي من جانب كل من المتعلمين والمربين ، يجب أن تربط (عملية محو الأمية) التلطف بالكمة بتحول الواقع وبدور الإنسان فى هذا التحول . . إن إدراك أهمية تلك العلاقة أساسى بالنسبة للذين يتعلمون القراءة والكتابة إذا كنا حقاً ملتزمين بالتححر . .

ذلك أن مثل هذا الإدراك سيقود المتعلمين لأن يدركوا أن لهم حقاً أكبر من تعلم القراءة والكتابة . . سيدركون فى النهاية أنهم كبشر لهم الحق فى أن يكون لهم صوتاً . .

ومن ناحية أخرى فإن تعلم القراءة والكتابة باعتبارها عملية

معرفة لا يفترض مسبقاً نظرية في المعرفة وحسب بل طريقة لتوازي النظرية كذلك . .

وهكذا تدرك الوحدة غير القابلة للجدل بين الذاتية والموضوعية في عملية المعرفة . . فالواقع ليس أبداً وبساطة مجرد الحقيقة الموضوعية أو الوقائع الملموسة ، ولكنه إدراك الإنسان كذلك ، ومرة أخرى ، ليس هذا تأكيداً ذاتياً أو مثالياً كما قد يبدو . . على العكس فالذاتية والموضوعية⁽⁹⁾ . . تقتضى عملية محو الأمية باعتبارها عملية معرفة وجود محيطين مترابطين جواباً . . أحدهما محيط الحوار الصادق الحقيقي بين المتعلمين والمربين باعتبارهما ذاتين عارفتين متساويتين ، وهذا ما يجب أن تكون عليه المدارس في البيئة النظرية للحوار . . أما المحيط الثاني هو محيط الوقائع الحقيقية الملموسة ، الواقع الاجتماعي الذي يوجد فيه الإنسان . .

في المحيط النظري للحوار ، يتم تحليل الوقائع التي يطرحها المحيط الحقيقي أو الملموس نقدياً . . ويقتضى هذا التحليل ممارسة التجريد الذي ننشد من خلاله ، عن طريق تصورات الواقع الملموس أى معرفة ذلك الواقع . . وأداة هذا التجريد في منهجنا هي الترميز⁽¹⁰⁾ ، أو تصوير المواقف الوجودية للمتعلمين .

فالترميز من ناحية ، متوسط بين المحيطين الملموس والنظري للواقع . . ومن ناحية فالترميز من حيث أنه شيء قابل

للمعرفة يتوسط بين الذوات العارفة للمربين والمتعلمين ، الذين ينشدون بالحوار الكشف عن كليات الفعل - الشيء .

يجب أن يقرأ هذا النوع من التخاطب اللغوي من طرف كل من يحاول تفسيره ، حتى عندما يكون تصويرياً صرفاً . .
ويقدم في حد ذاته ما يسميه نشومسكن « بالبنية السطحية »
فالبنية العميقة . .

« فالبنية السطحية » للترميز تجعل كل الفعل الشيء واضحاً من الناحية التصيفية الصرفة . . والمرحلة الأولى من فك الرموز⁽¹¹⁾ (الفرز الرمزي) أو القراءة الوصفية في هذه المرحلة يركز القراء أو الذين يفكون الرموز على العلاقة بين المقولات المكونة للترميز ويتبع هذا التركيز الأولى على البنية السطحية مشكلة . . الموائف المرمز . . وهذا يقود المتعلم إلى المرحلة الثانية والجوهرية من فرز الرموز وهي فهم واستيعاب البنية العميقة للترميز . . وبفهمه للبنية العميقة للترميز يستطيع المتعلم أن يفهم الجدل القائم بين المقولات المطروحة في « البنية السطحية » وكذلك الوحدة بين البنيات « السطحية ، والعميقة » .

في طريقتنا نحن ، يأخذ الترميز مبدئياً شكل صورة أو يمثل بمثل موجود حقيقياً ، أو موجوداً يركبه المتعلمون . .
وعندما يعرض مثل هذا التصوير أو التمثيل كشريحة ينجز المتعلمون فعالية أساسية لعملية المعرفة إذ يكتسبون مسافة عن الشيء القابل للمعرفة . ويتعرض المربون كذلك بتجربة

المسافة هذه حتى يتمكن المربون والمتعلمون معاً من التفكير نقدياً فى البنى القابلة للمعرفة والذي يتوسط بينهم . . إن هدف فك الرموز (فرز الرموز) هو الوصول إلى مستوى المعرفة الناقدة ، ابتداءً من خبرة المتعلم بالموقف فى الإطار الحقيقى .

ولما كان التصوير المرمز هو الشيء القابل للمعرفة متوسطاً بين ذوات عارفة كان فك الرموز (فرز الرموز) - حل الترميز إلى عناصره المكونة - هو العملية التى يدرك بها الذوات العارفة العلاقات بين عناصر الترميز والوقائع الأخرى التى يطرحها المحيط الحقيقى - تلك العلاقات التى لم تدرك من قبل . . فالترميز يصور بعداً معيناً من الواقع كما يعيشه الأفراد ، يهتم بطرح هذا البعد لتحليلهم فى محيط غير المحيط الذى يعيشون فيه . . وهكذا فالترميز يحول ما كان طريقة فى الحياة فى الإطار الحقيقى إلى مدرك حسى فى الإطار النظرى . . وبدلاً من أن يتلقى المتعلمون المعلومات حول هذه الواقعة أو تلك ، يحللون جوانب من خبراتهم الوجودية الذاتية المصورة فى الترميز . .

الخبرة الوجودية كل . . وعند تسليط الضوء على إحدى زواياها وإدراك الترابط بين تلك الزاوية وغيرها ، ينزع المتعلمون إلى استبدال الرؤية المجزأة للواقع برؤية كلية . . ويعنى هذا من وجهة نظر نظرية المعرفة أن الديناميكية بين ترميز المواقف الوجودية وفك الرموز (فرز الرموز) انهماك المتعلمين فى إعادة تركيب إعجابهم السابق بالواقع باستمرار . .

ونحن لا نستخدم مفهوم الإعجاب هنا بالطريقة المألوفة ،
أو بمعناه الأخلاقي أو الجمالي ، ولكن بمداول فلسفي مصاحب
خاص .. أن تعجب يعنى تشيء اللا أنا .. إنها عملية جدلية
تخص الإنسان كإنسان ، وغيره عن الحيوان .. وترتبط مباشرة
بالبعد الإبداعي للغة .. فإن تعجب تقتضى ضمناً أن يراقب
الإنسان بانتباه ضد اللا أنا .. لكي يفهمها .. ولهذا السبب ،
ليست هناك عملية معرفة تون الإعجاب بالشىء قيد المعرفة ..
وإذا كانت عملية المعرفة عملية ديناميكية ، ليست هناك معرفة
كاملة أبداً - إذن لكي يعرف الإنسان عليه ألا يعجب بالشىء
وحسب ، بل يجب عليه دائماً أن يعجب مجدداً بإعجابه السابق
وعندما نعجب من جديد بإعجابنا السابق (دائماً أعجب فإننا فى
ذات الوقت نعجب بعملية الإعجاب والشىء المعجب به حتى
نتمكن من التغلب على الأخطاء التى ارتكبتها فى إعجابنا
السابق .. ويقودنا هذا الإعجاب من جديد إلى إدراك
سابق) ...

وفى عملية فك رموز تصويرات مواقفهم الوجودية ،
وبإدراك مدركاتهم السابقة ، يشك المتعلمون تدريجياً ،
ويترددون ، ويتهيبون فى أفكارهم السابقة عن الواقع ويبدأون فى
استبدالها بمعرفة أكثر نقدية فأكثر ..

ولنفترض أننا سنقدم لمجموعات من بين الطبقات
المسودة (المهمين عليها) ترميزات تصور تقليدهم لنماذج من
ثقافة سادتهم حاكميهم (المهمين عليهم) - وهى نزعة طبيعية

فى الوعى المضطهد فى لحظة معينة ربما أنكر المحكومون السودون (المهيمن عليهم) دفاعاً عن النفس حقيقة الترميز . . وعندما يعمقون تحليلاتهم ، على كل حال ، سيدأون يدركون أن تقليدهم الظاهر لنماذج المهيمين الشاذة هو نتيجة لاستيطانهم لهذه النماذج ، وفوق كل شىء نتيجة للأساطير حول تفوق تلك الطبقات السائدة التى تجعل السودين يشعرون بالنقص . . وما يبدو فى الواقع أنه مجرد استيطان يظهر فى التحليل الساذج تقليداً . . جوهرياً ، كما أشير فى تعليم المقهورين ، عندما تتبع الطبقات المسودة أسلوب حياة السادة فذلك مرده إلى أن السادة يعيشون ضمن (فى داخل) السودين ولا يستطيع السودون طرد السادة إلا بالابتعاد عنهم وتشيئهم . . وعندئذ فقط يستطيعوا أن يدركوا أنهم نقيضاً لهم كما يقول (قانون) .

وعلى أى حال ، وإلى حد أن استيطان قيم السادة ليس ظاهرة فردية . وحسب ، ولكنه ظاهرة اجتماعية وثقافية ، يجب أن يتحقق الطرد عن طريق نوع من العمل الثقافى تلغى فيه الثقافة ثقافة أخرى . أى أن الثقافة كنتاج مستيطن يكيف بدوره نشاطات الإنسان اللاحقة ، يجب أن تصبح موضع معرفة الإنسان حتى يتمكن من إدراك قوتها التكيفية . . يحدث الفعل الثقافى فى مستوى البنية القومية . . ولا يمكن أن يفهم إلا عن طريق ما يسميه جدلية التحديد التظافرى (أنظر كذلك تقريرنا السنوى) هذه الوسيلة التحليلية تمنعنا من السقوط فى التعليقات الميكانيكية ، بل أسوأ من ذلك الفعل الميكانيكى . . إن فهم

ذلك يحول دون الدهشة لأن تظل الخرافات الثقافية قائمة بعد تحويل البنية التحتية ، حتى لو بفعل الثورة . .

وعندما يكون حكم ثقافة جديدة مناسباً ولكن تعوقه فضلة ثقافية مستيطة ، فإن هذه الفضلة (ترسبات) والخرافات يجب أن تطرد بواسطة الثقافة . . فالعمل الثقافي ، والثورة الثقافية ، يشكلان ، فى مراحل مخالفة ، أسلوب هذا الطرد . .

يجب أن يكتشف المتعلمون الأسباب التى تكمن وراء العديد من اتجاهاتهم نحو الواقع الثقافى وبالتالي يواجهون الواقع بكيفية جديدة . . ولكى يحققوا هذا من الضرورى الإعجاب مجدداً بإعجابهم السابق وتأسيس قدرة المتعلمين على المعرفة الناقدة تتجاوز مجرد إبداء رأى بكثير أثناء عملية الكشف عن علاقاتهم بالعالم التاريخى - الثقافى الذى يوجدون فيه ومعه .

نحن لا ننوى أن نقترح أن المعرفة النقدية لعلاقات إنسان العالم تنشأ كمعرفة لغوية/ لفظية خارج الممارسة . . ذلك أن الممارسة تتدخل فى الموانف الملموسة التى يتم ترميزها لغرض التحليل النقدى . . ولهذا السبب عينه فتحليل الترميز من حيث « بنيته العميقة » يعنى إعادة بناء الممارسة السابقة ، وامتلاك القدرة على ممارسة جديدة ومختلفة . . إن العلاقة بين المحيط النظرى الذى يتم فيه تحليل التصويرات المرمزة للوقائع الموضوعية والمحيط الملموس الذى تحدث فيه الوقائع لا بد أن يصار حقيقياً .

إن مثل هذه التربية لا بد أن تتميز بالالتزام وهذا يعنى ضمناً الحركة من المحيط الملموس التى توفر الوقائع الموضوعية إلى المحيط النظرى حيث تحلل هذه الوقائع بعمق ، ثم الرجوع إلى المحيط الملموس حيث يجرب الأفراد أشكالاً جديدة من الممارسة ..

وقد يبدو أن بعض أحكامنا تدافع عن المبدأ القائل بأن على المتعلمين ، بصرف النظر عن مستواهم ، أن يعيدوا بناء عملية المعرفة الإنسانية على أساس مطلق وفى الحقيقة عندما نفكر فى تعلم القراءة والكتابة بين الكبار أو التربية بشكل عام باعتبارها عملية معرفة ، فإننا ندعو إلى التأليف بين معرفة المربى وبين معرفة المتعلمين الذى لم يحقق إلا الحد الأدنى من التنظيم .. وهو تأليف يتحقق فى الحوار .. إن دور المربى هو أن يقترح قضايا حول المواقف الوجودية المرمزة حتى يساعد المتعلمين على الوصول إلى نظرة تزداد لواقعهم .. وهكذا فدور المربى كما تراه هذه الفلسفة أكبر من كل النواحي من دور زملائه من يقتصر واجبهم على نقل المعلومات التى يستظهرها المتعلمون .. يستطيع مثل هذا المربى ببساطة أن يكرر ما قرأه ، وكثيراً ما يساء فهمه (فهم ما قرأه) حيث أن التربية بالنسبة له لا تعنى عملية المعرفة .. على العكس ، فالمربى من النموذج الأول ذات عارفة يقف وجهاً لوجه مع ذوات عارفة أخرى . لا يستطيع أبداً أن يكون مجرد مستظهر بل شخصاً يكيف معرفته من جديد باستمرار ، ويستحث المعرفة بين طلبته .. فالتربية بالنسبة له هو بيداغوجية المعرفة .. أما

المربى الذى يبنى طريقة الاستظهار الصرف فهو مضاد للحوار ، ونقل المعرفة عنده لا تتغير . . وبالمقابل فالحوار بالنسبة للمربى الذى يختبر/يعانى عملية المعرفة مع طلبته هو ختم عملية المعرفة . . وعلى كل حال ، فهو يدرك أنه ليس كل حوار فى حد ذاته دليل على علاقة معرفية حقيقية .

إن المذهب العقلى السقراطى - الذى أخطأ فهم تعريف المفهوم على أنه معرفة الشيء المعرف وأن هذه المعرفة فضيلة - لم يشكل بيداغوجية حقيقية للمعرفة ، بالرغم من أنها كانت حوارية . . وقد فشلت نظرية أفلاطون فى الحوار فى أن تتجاوز النظرية السقراطية فى اعتبار التعريف معرفة ، ولو أن أحد الشروط الأفلاطونية الأساس للمعرفة أن يكون الإنسان قادراً على تحقيق الوعى وبالرغم من أنه لا مناص للإنسان من الانتقال من الفكر إلى العنل أو المنطق ليصل إلى الحقيقة . . فتحقيق الوعى لدى (أفلاطون) لا يشير إلى ما كان يعرفه الإنسان أو ما لم يعرفه أو ما عرفه بشكل سىء ، بخصوص علاقته الجدلية مع العالم ، بل يرتبط بما كان يعرفه الإنسان ذات يوم ونسيه فى المهد . فالمعرفة أن تعرف يعنى أن تتذكر أو تسترجع المعرفة المنسية . . أن إدراك كل من الفكر والمنطق والتغلب على الفكر بالمسطق لا يحدث فى مرحلة علاقة الإنسان - الكون بل فى المجهود لتذكر أو إعادة اكتشاف المنطق الذى كان منسياً . .

ولكى يصبح الحوار طريقة للمعرفة الحقيقية ، لا بد أن تتناول الذوات العارفة الواقع عملياً لكى ينمو عن العلاقات

الجدلية التى تفسر بشكل الواقع . . وهكذا فالمعرفة ليست تذكر
ما كان معروفاً من قبل وثم نسيانه . . كما لا يمكن التغلب على
الفكر (باللوعوس) بالمنطق بمعزل عن علاقة الإنسان الجدلية
مع عالمه ، وبمعزل عن نشاطه التأملى فى العالم . .

إذن لكى تصبح عملية محو الأمية عملية معرفة ، فلا بد
من إشغال المتعلمين فى المشكلة المستمرة لمواقفهم
الوجودية . . ويوظف هذا التمشكل كلمات توليدية يختارها
المربون فى أبحاثهم الأولية فيما نسميه بالعالم اللغوى الأدنى
لمتعلمى المستقبل . . تختار الكلمات أولاً لقيمتها البراجماتية ،
أى باعتبارها علاقات/إشارات لغوية تستدعى فهماً مشتركاً فى
إقليم ما أو منطقة معينة من نفس المدينة أو البلد (مثلاً فى
الولايات المتحدة تحمل كلمة الروح دلالة خاصة فى المناطق
السوداء لا تحملها بين البيض) ، وثانياً بسبب صعوباتها الصوتية
التي تقدم تدريجياً لمن يتعلمون القراءة والكتابة . . وأخيراً ،
من المهم أن تكون الكلمة التوليدية الأولى ذات ثلاثة مقاطع
وعندما تقسم إلى مقاطعها يكون كل منها أسرة مقطعية يستطيع
أن يجرب العديد من التوافقيات المقطعية عند رؤية الكلمة
للمرة الأولى . .

وبعد أن يتم اختيار سبع عشرة كلمة توليدية ، تكون
الخطوة التالية هى ترميز سبعة عشر موقفاً وجودياً مألوفاً لدى
المتعلمين . . ثم يتم إدخال الكلمات فى المواقف الواحدة تلو
الأخرى منظمة حسب تزايد صعوبتها الصوتية . . وكما سبق وأن
أكدنا فهذه الترميزات أشياء قابلة للمعرفة تتوسط الذوات

العارفة ، من مربين ، ومتعلمين ، ومتعلمين - مربين . . وتطور عملية المعرفة عندهم في حلقات النقاش الثقافية التي تؤدي وظيفة المحيط الثقافي . .

وفي البرازيل وقبل تحليل المواقف الوجودية للمتعلم والكلمات التوليدية التي تحتويها ، افترضنا ترميز موضوع علاقات الإنسان - العالم عامة وبناء على اقتراح التربويين التشيليين تمت مناقشة هذا البعد الهام في آن واحد مع تعلم القراءة والكتابة والأهم من ذلك هو أن يكون الشخص الذي يتعلم الكلمات منهمكاً في ذات الوقت بالتحليل النقدي للإطار الاجتماعي الذي يوجد فيه الإنسان مثلاً كلمة (حي قدر مزدحم بالسكان) في ريودي جانيرو في البرازيل وكلمة (مخيم) في تشيلي ، تصوران ، بما لكل منهما من ظلال دلالية دقيقة نفس الواقع الاجتماعي ، والاقتصادي ، والثقافي للأعداد الفقيرة من ساكني الأحياء المزدحمة بالسكان . . وإذا ما استعملت كلمتا (كولمبيا وفولا) باعتبارهما كلمات توليدية بالنسبة لقاطني الأحياء الفقيرة في البرازيل وتشيلي فلا بد أن تمثل الترميزات مواقف تتعلق بالأحياء الفقيرة .

هناك الكثير ممن يعتبرون سكان الأحياء الفقيرة هامشين ، جوهرياً ، شريرين وأنهم أدنى منزلة . . ونحن نوصي لمثل هؤلاء الناس بالتجربة المفيدة لمناقشة المواقف المتعلقة بالأحياء الفقيرة مع ساكني هذه الأحياء أنفسهم لأن بعض هؤلاء النقاد غالباً ما كانوا مخطئين ، فمن الممكن أن يصححوا مواقفهم الخرافية، وربما اتخذوا مواقف أكثر

علمية .. وربما تجنبوا القول بأن الأمية ، والكحولية ، والجريمة ، والمرض ، ونسبة الوفيات ، ونقص التعلم ، وسوء النظافة بين سكان الأحياء الفقيرة ، تكشف جميعها عن الطبيعة الدنيا لسكانها .. بل ربما انتهوا حتى إلى إدراك أنه إذا كان الشر الجوهرى موجوداً فهو جزء من البنيات وأن البنى هي التي يجب أن تحوّل ..

يجب الإشارة إلى أن العالم الثالث ككل ، وأكثر من ذلك فى أجزاء فيه ، يعاني نفس سوء الفهم من طرف بعض قطاعات ما يسمى بالمجتمعات المدنية .. فهم ينظرون إلى العالم الثالث باعتباره تجسيداً للشر ، والبداية ، والشيطان ، الخطيئة والكسل ، وباختصار تاريخياً غير قابل للحياة بدون المجتمعات المديرة .. إن مثل هذه النظرية المأنوية هي مصدر النزوة إلى إنقاذ العالم الثالث الذى تملكه الشيطان وذلك بتربيته وتصحيح تفكيره وفقاً لمعايير المجتمعات المديرة/الموجهة .

تنطوى هذه الأفكار على المصالح التوسعية للمجتمعات الموجهة ولا يمكن لهذه المجتمعات أن ترتبط بدول العالم الثالث كشركاء ، ذلك أن الشراكة تفترض مسبقاً المساواة ، مهما اختلفت الأطراف المتساوية ، ولا يمكن أن تتحقق المشاركة بين أطراف معادية لبعضها البعض ..

ومن ثم فإن إنقاذ العالم الثالث من طرف المجتمعات الموجهة لا يمكن إلا أن يعنى السيطرة عليه فى حين تكمن

أمانيه المشروعة فى الاستقلال فى رؤاه الطوباوية : إنقاذ المجتمعات الموجهة فى ذات عملية تحرير أنفسهم ..

وبهذا المفهوم فالبيداغوجيا التى ندافع عنها ، والمفهومة فى أجزاء مهمة من العالم الثالث ، هى فى حد ذاتها بيداغوجيا ثورية .. وبسبب هذه الحقيقة بالذات فهى مليئة بالأمل ، ذلك أن الطوباوية لا تعنى أن نكون المثالية وحسب أو عبر عملى بل المشاركة فى الاتهام والإبلاغ إن بيداغوجيتنا لا يمكن أن تستغنى عن رؤية تجاه الإنسان والعالم .. فهى تصوغ/ تشكل مفهوماً علمياً إنسانياً يجد التعبير عنه فى الممارسة الحوارية حيث يدين المعلمون والتعلمون منا ، من الواقع خلال تحليل الواقع السالب للإنسان فى الوقت الذى يعلنون فيه عن تحويله باسم تحرير الإنسان ..

ولهذا السبب ذات- فإن الإدانة والإعلان فى هذه البيداغوجيا الثورية لا يجب أن تكون كلمات جوفاء ، بل التزاماً تاريخياً .. إن إدانة موقف سالب للإنسانية يتطلب اليوم وبشكل متزايد الفهم العلمى الدقيق لذلك الموقف وبالمثل فالإعلان عن تحويله يتطلب بشكل متزايد نظرية فى الفعل/العمل التحويلي وعلى كل حال فإن أيّاً من العمليتين لا تعنى ضمناً بمفردها تحويل الواقع المدان أو تحقيق الواقع المعلن على العكس فالواقع المعلن باعتباره لحظة فى عملية تاريخية ، موجود بالفعل مسبقاً فى عملية الإدانة والإعلان ..

هذا ما يجعل الطبيعة الثورية لنظريتنا التربوية وممارستها

دائمة ديمومة التربية ذاتها ، والتي تشكل بالنسبة لنا حملاً ثقافياً .. كما أن اندفاعها باتجاه الرفض أو القبول لا يمكن أن يستنفذ عندما يتخلى الواقع المدان/المرفوض اليوم عن مكانه غداً للواقع الذى أعلن عنه سابقاً فى الإدانة .. وعندما لا تعود التربية ثورية ، أى عندما لا تعود الوحدة المثيرة بين الرفض/الإدانة والقبول/الإعلان فإنما مرد ذلك إلى أن المستقبل لم يعد له أى معنى بالنسبة للإنسان ، وأما لأن الإنسان خائف من مجازفة أن يعيش المستقبل باعتباره تغلب مبدع للحاضر الذى أصبح مبتذلاً ..

وعموماً فالتفسير الأخير هو الأكثر احتمالاً وهذا هو السبب فى أن الناس اليوم يدرسون الإمكانيات التى يحويها المستقبل ، لكى يروضوه ويتغلبوا عليه منسجمين مع الحاضر ، وهو ما يقرون الحفاظ عليه .. وإذا كان هناك أى كرب فى المجتمعات الموجهة مخبأ تحت ستار تكنولوجيايتهم الباردة ، فإنما ينبع من تصميمهم الشديد على المحافظة على مكانتهم المدنية فى المستقبل .. ومن الأشياء الجوهرية التى يمكن أن يتعلمها العالم الثالث من المجتمعات المدنية هى ألا يعيدوا إنتاج تلك المجتمعات عندما تصبح طوباويته الحالية حقيقة واقعة ..

وعندما ندافع عن مثل هذا المفهوم التربوى - واقعى بالتحديد إلى حد أنه ثورى - أى إلى الحد الذى يرفض فيه ما هو كائن بالفعل ، ومن ثم يجد بين الرفض وتحقيقه زمن ممارسته - فنحن نحاول أن نصوغ نموذجاً من التربية يتوافق مع صيغة الوجود الإنسانى على وجه الخصوص ، وهذا تاريخى ..

ليس هناك قبول/إعلان دون رفض تماماً كما أن كل رفض يولد القبول . . أو بدون الأخير يكون الأمل مستحيلًا . وعلى كل حال ، فالأمل في الرؤية الثورية الحقيقية ، لا يعني أن الرد وهو مكتوف اليدين . . فالانتظار ليس مركباً إلا إذا سعى المرء ، وقد ملأه الأمل ، عن طريق الفعل المتأمل إلى تحقيق ذلك المستقبل المعلن والذي يولد داخل الرفض .

وهذا هو سبب عدم وجود أمل حقيقى لدى أولئك الذين ينوون أن يجعلوا المستقبل يكرر حاضرههم ، ولا لدى أولئك الذين ينظرون إلى المستقبل على أنه شيء مقدر سلفاً . . فنظرة كليهما للتاريخ استسلامية مروضة . . الأول لأنهم يريدون أن يوقفوا الزمن ، والأخير لأنهم واثقون بمستقبل يعرفونه بالفعل . . وعلى العكس ، فالأمل الثورى . . ارتباط الالتزام مليئة بالمخاطر . . وذلك هو السبب فى أن المسيطرين/السادة الذين يدينون أولئك الذين يدينهم وحسب ، والذين لا يملكون ما يعلنونه سوى المحافظة على الوضع الراهن ، لا يمكن أن يكونوا طوباويين ، ولا أن يكونوا بقدر ما يتعلق الأمر بذلك .

نتبين أن البيداغوجيا الثورية التى تقوم على الرفض وطرح البديل كالتى يطرحها ، لا بد أن تكون عملية معرفة بالواقع المرفوض على مستوى الأبجدة وما بعد الأبجدة ، والذين يشكّلان العمل الثقافى . . ولذلك كان هذا التأكيد على المشكلة المستمرة على المواقف الوجودية للمتعلمين كما تمثلها الصور المرمزة . . وكلمة طالت المشكلة ، كلما توغلت الذوات

فى جوهر الموضوع الممشكل كانوا أكثر قدرة على الكشف عن هذا الجوهر . . وكلما سبروا أغواره ، كلما تجذر وعيهم المستفيق فما يؤدى إلى توعية الطبقات الفقيرة بالموقف قد حولهم النقدى فى الواقع ، أى توعيتهم ، يجعل تحولهم من حالة اللامبالاة إلى حالة من الرفض والقبول الطوباويين مشروعاً قابلاً للحياة . .

وعلى كل يجب على المرء ألا يفكر أن تعلم القراءة والكتابة يسبق التوعية أو العكس . . فالتوعية تحدث مترامنة مع تعلم القراءة والكتابة أو ما بعدها . . فالكلمة فى طريقنا التربوية ليست شيئاً جامداً أو منفصلاً عن التجربة الوجودية للإنسان ، ولكنها بعد لفكره - ولغته حول العالم .

ذلك هو السبب فى أن المتعلمين عندما يشاركون فى التحليل النقدى للكلمات التوليدية الأولى التى ترتبط بتجربتهم الوجودية ، وعندما يركزون على أسر الكلمات المقطعية التى تنتج عن تحليلاتهم ، وعندما يدركون ميكانيكية/آلية التوافقيات المقطعية للغتهم ، يكتشفون فى النهاية مفرداتهم الخاصة فى التوافقيات الممكنة المختلفة ، وهكذا شيئاً فشيئاً ، وتعدد هذه الإمكانيات ، وعن طريق التمكن من الكلمات التوليدية الجديدة ، يوسع المتعلمون معجمهم وكذلك قدرتهم على التعبير وذلك بتنمية خيالهم الخلاق . .

وفى بعض المناطق الخاضعة للاستصلاح الزراعى فى تشيلى ، كتب الفلاحون المشاركون فى برامج محو الأمية

المفردات بمعداتهم على الطرق الترابية التي يعملون بها ..
وكانوا يشكلون المفردات، من التوافقيات المقطعية التي كانوا
يتعلمونها وقد قالت ماريا أدفريرة وهي أخصائية اجتماعية عن
فريق سان تياجو والتي تعمل بمعهد التدريب والبحث في
الإصلاح الزراعي قالت: « هؤلاء الرجال يزرعون الكلمة
حقاً ، لم يكونوا يزرعون الكلمة وحسب ، بل يناقشون
الأفكار ، وبدأوا يفهمون دورهم في العالم بشكل أفضل
وأفضل .. » .

وقد سألنا أحد أولئك الذين كانوا يزرعون الكلمة ، وكان
قد انتهى من المستوى الأول لدرس محو الأمية ، لماذا لم يكن
قد تعلم القراءة والكتابة قبل الإصلاح الزراعي ؟ ..

فقال ، « قبل الإصلاح الزراعي يا صديقي ، لم أكن
حتى أفكر .. وكذلك الأمر بالنسبة لأصدقائي » ..

تسألنا لماذا ؟ فأجاب بتأكيد : « لأن ذلك لم يكن
ممكناً .. كنا نعيش تحت الأوامر .. ولم يكن لدينا إلا أن ننفذ
الأوامر .. لم يكن لدينا شيء نقوله .. » .

إن إجابة هذا الفلاح البسيطة هي تحليل واضح جداً
لثقافة الصمت ، فإن توجد في « ثقافة الصمت » يعني أن
نعيش وحسب ، وينفذ الجسم أوامر مؤقتة ، ويصبح التفكير
صعباً ، والتلفظ بالكلمة ممنوعاً ..

وقد قال أحد الرجال الآخرين في نفس المحادثة « عندما

كانت كل هذه الأرض عزبة واحدة (العادية) لم يكن هناك أى سبب للقراءة والكتابة، إذ إننا لم نكن مسئولين عن أى شىء . . . كان الرئيس/ السيد يصدر الأوامر وكنا نطيعها . . لماذا القراءة والكتابة؟ . . أما الآن فالمسألة مختلفة . . خذنى أنا مثلاً . . ففى المستوطنة لم أكن مسؤولاً عن عملى وحسب ، أسوة بكل الرجال الآخرين ، بل مسؤولاً كذلك عن إصلاح المعدات . . وعندما بدأت لم أكن أستطيع القراءة ، ولكن سرعان ما أدركت أننى أتخيل وضعى عندما كنت أذهب إلى سانتياغو لشراء قطع الغيار . . لم أستطع أن أتكيف كنت خائفاً من كل شىء من المدينة الكبيرة ، شراء الأشياء خطأ ، أو أن يتم غشى . . أما الآن فالأمر مختلف تماماً . . » .

ولنلاحظ كيف وصف هذا الفلاح وبدقة تجربته السابقة كأمى . .

عدم ثقته ، خوفه السحري (ولو أنه منطقي) من العالم ، جنبه . . ولاحظ الإحساس بالطمأنينة فى تكراره « أما الآن فالأمر مختلف تماماً » . .

وفى مناسبة شبه مختلفة سألنا أحد « زارعى الكلمة الآخرين » ، ماذا أحسست أيها الصديق عندما استطعت أن تكتب وتقرأ كلمتك الأولى ؟ . . . كنت سعيداً لأننى اكتشفت أنه بمقدورى أن أجعل الكلمات تنطق . .

وقد نقل (داريكو سالاس) لقد استوقفنا فى أحاديثنا مع

الفلاحين الصور التي استخدموها للتعبير عن اهتمامهم بمحو أميتهم وارتياحهم لذلك .. فمثلاً قال أحدهم :

« لقد كنا عمياناً فيما مضى ، والآن سقط القناع من على أعيننا » .. « لقد جئت لأتعلم كيف أوقع إسمى فقط . لم أكن أصدق أبداً أنه سيكون بمقدورى أن أتعلم أقرأ كذلك فى سنى هذه » .. « فيما مضى بدت الحروف وكأنها دمي صغيرة أما اليوم فإنها تقول شيئاً ما إنى ، وأستطيع أن أجعلها تتكلم » ..

ويواصل ... من لمؤثر أن نلاحظ غبطة الفلاحين بفتح عالم الكلمات أمامهم .. كانوا يقولون أحياناً « نحن متعبون ورؤوسنا مصدوعة ، ولكن لا نريد أن نغادر هنا دون أن نتعلم القراءة والكتابة » .

وقد تم تسجيل الكلمات التالية خلال البحث فى الموضوعات التوليدية .. فهى تحليل أتى لرموز موقف وجودى رمز ..

« ترى منزلاً هناك ، يائساً ، كما لو كان مهجوراً .. يبدو البيت أسعد عندما ترى فيه طفلاً .. فهو يضيف المزيد من البهجة والطمأنينة للذين يمرون به .. يصل رب الأسرة إلى بيته مرهقاً من العمل ، ، قلقاً ، موجعاً ، ويستقبله طفله الصغير بعناق كبير حار ، لأن الطفل الصغير ليس جامداً كالشخص الكبير .. تبدأ السعادة تغمر الأب لمجرد رؤية طفله الصغير ثم يسعد حقاً .. إن رغبة ابنه ، فى أن يرضيه تثيره .. ويصبح الأب أكثر طمأنينة ، وينسى مشاكله » ..

لاحظ مرة أخرى بساطة التعبير ، العميق والرائع فى آن واحد فى لغة الفلاح .. هذه هى الجماهير التى يعتبرها أنصاره المفهوم الغذائى فى محو الأمية ، جاهلة تماماً !!

فى عام 1968 م نشر فريق من الأورجواى كتاباً صغيراً بعنوان «تعيش كما تستطيع» وقد أخذت محتوياته من تسجيلات صوتية لدروس محو الأمية بين سكان الأرياف .. وقد بيعت طبعته الأولى والتى كان قوامها خمس عشرة ألف نسخة فى العاصمة (مانفاديو) خلال خمس عشرة يوماً، وكذلك الحال بالنسبة للطبعة الثانية .. وفيما يلى مقتطفات من هذا الكتاب ..

- ألوان الماء ..
- الماء ؟ .. الماء ؟ .. لماذا يستعمل الماء ؟ ..
- أجل ، أجل ، لقد رأينا ذلك (فى الصورة) .
- آه ما أبعد قريتى الأصلية ..
- أتذكر تلك القرية ..
- المجرى حيث ترعرعت ، أنت تعلم ، أنى ترعرعت هناك ، طفولة ترتحل من مكان إلى آخر .. إن لون الماء يعيد إلى ذكريات طيبة ، ذكريات جميلة .
- لماذا يستعمل الماء ؟ ..
- يستعمل الماء للاغتسال .. تستعمله لغسل الملابس ، والحيوانات التى فى الحقول كانت تذهب إلى هناك لتشرب ، وقد اغتسلنا هناك أيضاً ..

● هل استعملت اماء للشرب كذلك ؟ ..

● نعم عندما كنا عند المجرى ولم يكن لدينا ماء للشرب ، شربنا من المجرى .. أذكر كيف ذات مرة فى عام 1945 جاءنا وباء من الجراد من مكان ما ، وكان علينا أن نصطاده من الماء .. كنت صغيراً ، ولكنى أذكر أنى أخذت الجراد بيدي على النحو لآتى .

ولم يكن لى غيرها .. وأذكر كيف كان الماء ساخناً عندما كان هناك جفاف وكاد المجرى يكون جافاً تماماً .. كان الماء قدراً ، وحلاً وساخناً ، وبه مختلف الأشياء .. ولكن علينا أن نشربه أو نموت عطشاً ..

كل الكتاب بهذا الشكل ، مختلفاً فى أسلوبه عبر فيه المؤلفون : تلك الجماهير المجهولة ، زراع الكلمات الباحثون عن الخروج من « ثقافة الأصمت » ، بقوة عن العالم ..

نعم ، يجب أن تكون هذه نصوص القراءة لمن يتعلمون القراءة والكتابة ، وليس رأت أيضا العنب .

« جناح الطير

إذا كنت تطرق مساراً ، فكن حذراً ألا تصدم أصبعك »
فالتعصبات الفكرية وأكثر من ذلك التعصبات الطبيعية هى المسؤولة عن الأفكار الساذجة والضحلة التى تذهب إلى أن الجماهير لا تستطيع أن تكتب نصوصها بنفسها ، أو أن تسجل أحاديثها التى لا قيمة لها ما دامت تفتقر إلى معنى .. وبمقارنة ما قاله « زارع الكلمات » فى المراجع المذكورة أعلاه عامة

بدروس القراءة التى يكتبها مؤلفون متخصصون، اقتنعنا أن لا أحد يختار نصوص الأخصائيين إلا إذا كان يفتقر إلى الذوق تماماً أو كان يعانى من عجز علمى مؤسف..

ولتخيل كتاباً كتب كلية بلغة الجماهير البسيطة، الشعرية والحرّة، تشترك فيه مختلف التخصصات انطلاقاً من روح الحوار الصادق.. وسيكون دور الفرق هو التوسع فى أجزاء معينة من الكتاب من منطلقات مشكلته.. مثلاً يعالج الجزء الخاص باللغويات ببساطة، ولكن دون إسفاف، بقضايا جوهرية لفهم المتعلم الناقد للغة.. دعونى أؤكد مرة أخرى أنه لما كان أحد الأوجه المهمة للعمل فى محو الأمية بين الكبار هو تنمية القدرة على التعبير، فإن الجزء المتعلق باللغويات سي طرح للمتعلمين موضوعات للنقاش تتراوح بين زيادة. المعجم اللغوى إلى مسائل تتعلق بالتواصل- بما فى ذلك دراسة المترادفات ونقيض المعنى، بما فى ذلك تحليله، للكلمات فى البنية اللغوية، واستعمال الاستعارة، التى تمتلك الجماهير العامة زمامها.. وقد يوفر جزء آخر الأدوات للتحليل الاجتماعى لمحتوى النصوص..

وبالطبع لن تستعمل هذه النصوص لمجرد القراءة الميكانيكية التى تترك القراء دون أى فهم لما هو حقيقى.. وتمشياً مع طبيعة هذه البيداغوجيا يصبحون موضوع التحليل فى حلقات القراءة..

أضف إلى ذلك الواقع الكبير الذى سيتكون لدى أولئك

الذين يتعلمون القراءة والكتابة وكذلك الطلبة من ذوي المستويات المتقدمة ، بأن يعرفوا أنهم يقرأون ويناقشون أعمالاً لرفاقهم ..

وللقيام بمثل هذا العمل ، من الضروري الإيمان بالجماهير ، والتضامن معها .. من الضروري أن نكون طويابوين ، بالمعنى الذي استخدمنا فيه الكلمة ..

الفصل الثانى

العمل الثقافى والتوعية

الوجود فى العالم ومع العالم :

من المناسب عند هذه النقطة أن نقدم تحليلاً صريحاً ومنظماً لمفهوم التوعية⁽¹⁾ ..

يجب أن تكون نقطة البداية لمثل هذا التحليل الاستيعاب الناقد للإنسان ، ككائن يوجد فى العالم ومعهِ .. ولما كان الشرط الأساسى للتوعية هو أن تكون وسيلتها (أى كائن واعٍ) فقد كانت التوعية شأنها شأن التربية عملية إنسانية تخص الإنسان بالذات وتقتصر عليه وحده .. فالإنسان لا يوجد مع غيره فى العالم وحسب بل مع العالم باعتباره كائناً واعياً .. والإنسان باعتباره كائناً مفتوحاً وحده القادر على تحقيق تلك العملية المعقدة المتمثلة فى تحويل العالم بفعله وفى نفس الوقت إدراك العالم والتعبير عنه بلغته الخلاقة ..

فى مقدور الإنسان أن يفى بشرط الوجود مع العالم الضرورى لأنه بأستطاعته أن يقف على مسافة موضوعية منه . . ودون هذا النشؤ ، الذى ينشئ به الإنسان نفسه أيضاً ، سيكون الإنسان محدوداً بالوجود فى العالم مفتقراً بذلك إلى المعرفة - الذاتية ومعرفة العالم على حد سواء . .

وبعكس الإنسان فالحيوانات موجودة فى العالم وحسب غير قادرة على أن تنشئ نفسها بنفسها - أو العالم فهى تعيش حياتها خارج الزمن وبالمعنى الصريح ، تعيش مغمورة فى الحياة دون إمكانية الخروج منها ، متكيفة مع الواقع وملتزمة به . . أما الإنسان ، فعلى العكس حيث يستطيع أن يقطع هذا الالتزام وأن يسمو على مجرد الوجود/ الكينونة فى العالم ، وأن يضيف إلى الحياة التى يحياها الوجود الذى يصيغه . . وهكذا يصبح الوجود أسلوباً حياتياً مناسباً للكائن القادر على التحول ، على الإنتاج ، واتخاذ القرار ، والإبداع ، والتعبير عن نفسه . .

أما الكائن الذى يحيا وحسب فهو غير قادر على التفكير فى نفسه أو معرفتها وهو يحيا فى العالم ، نجد الذات/الشخص . . الموجودة تفكر فى حياتها ضمن مجال الوجود ذاته ويتساءل عن علاقته مع العالم . . ومجال وجوده هو مجال العمل ، والتاريخ ، والثقافة ، والقيم - المجال الذى يختبر فيه الإنسان الجدل بين الحتمية والحرية وما لم يقطع الإنسان التزامه بالعالم ويخرج منه باعتباره هدفاً له فسيظل الإنسان مجرد كائن محتوم ، مسير وسيصبح التفكير فى تحريره مستحيلًا إن الكائنات التى تستطيع التفكير فى حقيقة أنها

محتومة/مسيرة وحدها القدرة على تحرير نفسها ولا تكون نتيجة ذلك التأمل الواعى الغامض وغير الملتزم وحسب ، بل وممارسة الفعل التحويلي العميق فى الواقع المحدد/المسير . . فالوعى بالواقع والفعل فيه إذن مكونات لا مناص عنها لعملية التحويل التى يصبح بها الإنسان كائناً علائقياً ومما يميز وعى الإنسان وفعله عن مجرد الاتصالات الحيوانية مع العالم هو تفكرها ، وعهديتها ، ووقتيها ، وسموها المتميز . . فاتصالات الحيوانات بالعالم ليست نقدية . . وهى لا تتعدى تداعى الصور الحسية عن طريق الخبرة . . وهى منفردة وليست جماعية . . فالحيوانات لا تحدد أهدافاً وهى موجودة على مستوى الانغماس وعليه فهى ليست زمانية .

إن الالتزام/المشاركة والمسافة الموضوعية ، وفهم الواقع باعتباره شيئاً ، وفهم أهمية فعل الإنسان فى الواقع الموضوعى ، والتواصل الخلاق حول الشيء عن طريق اللغة ، وجماعية الاستجابات نحو تحد معين ، كل هذه الأبعاد المتنوعة تشهد على وجود التفكير النقدي فى علاقات الإنسان بالعالم . . فالوعى يتكون من الجدل الناجم عن تشيئ الإنسان للعالم وفعله فيه وعلى كل فالوعى مجرد انعكاس للواقع المادى أبداً بل إنه التفكير فيه . .

وإذا كان صحيحاً أن الوعى مستحيل بدون العالم الذى يشكله ، فمن الصواب أيضاً أن هذا العالم مستحيل هو الآخر ما لم يصبح العالم ذاته عند تشكيل الوعى هدفاً لتفكير الوعى النقدي . . وهكذا لما كانت الوضعية الميكانيكية تنكر الإنسان

كانت غير قادرة على تفسير الإنسان والعالم، تماماً كما هو الحال بالنسبة للمثالية الأندنية إذ أنها تنفى العالم ..

فالوعى بالنسبة للوضعية الميكانيكية هو مجرد نسخة من الواقع الموضوعى .. وتخزل الأندنية العالم إلى مجرد نزوة من صنع الوعى .. ففى الحالة الأولى يكون الوعى عاجزاً عن تجاوز تكييفه بالواقع وفى الحالة الثانية ويقدر ما يخلق الوعى الواقع .. فهو مبدأ أولى للواقع وفى كلتا الحالتين فالإنسان غير منشغل بتحويل الواقع .. إذ أن ذلك سيكون مستحيلاً بالمعايير الموضوعية لأن الوعى نسخة طبق الأصل للواقع، بالنسبة للموضوعية هى هدف الواقع وعندئذ يتحول الواقع من ذاته .. كما أن نظرة الأندنية لا تمشى هى الأخرى مع فكرة تحويل الواقع، ما دام تحويل واقع حياتى وهكذا لا يمكن أن تكون هناك ممارسة حقيقية فى كلا المفهومين عن الوعى .. فالممارسة غير ممكنة إلا حيث يتم الحفاظ على جدلية الموضوعى - الذاتى ..

كما أن السلوكية تمجز أيضاً عن فهم جدلية علاقات الإنسان - العالم .. ففى الشكل المسمى بالسلوكية الميكانيكية ، يتم نكران الإنسان لأنه ينظر إليه على أنه آلة .. أما الشكل الثانى المسمى بالسلوكية المنطقية، فهى الأخرى تنفى الإنسان حيث أنها تؤكد أن وعى الإنسان مجرد تجريد لا يمكن أن تؤسس عملية التوعية على أى من هذه التفسيرات الناقصة لعلاقات الإنسان - العالم .. فالتوعية ليست قابلة للحياة لولا أن وعى الإنسان ، بالرغم من أنه مشروط قادر على

إدراك أنه مشروط ويعلل هذا البعد النقدي للوعى تلك الأهداف التى يحددها الإنسان على أنشطتهم التحويلية فى العالم . . ولأن الإنسان قادر على أن يكون لديه أهداف ، فقد كان وحده قادر على تصور نتيجة أنشطته حتى قبل البدء فى الفعل المقترح . . فالإنسان كما يبين ماركس بجلاء كائن يستطيع أن يتخيل :

إننا نفترض وجود العمل مسبقاً بشكل يطبعه على أنه محدود بالإنسان وحده . . فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه تلك التى يقوم بها الناسج ، كما أن النحلة فى بناء خلاياها تخجل الكثيرين من المعمارين غير أن ما يميز أسوأ معمارى عن أحسن نحلة هو أن المعمارى يشيد بناءه فى الخيال قبل أن يشيده على الواقع . .

وبالرغم من أن النحلة كأخصائى خبير تستطيع أن تتعرف على الزهرة التى تحتاجها لصنع العسل ، فهى لا تغير تخصصها . . ولا يمكنها أن تنتج منتجات جانبية . فنشاطها فى العالم لا يصاحبه التشيى ويفتقر إلى التفكير الناقد الذى يميز مهمات الإنسان وفى حين تتكيف الحيوانات مع العالم من أجل البقاء ، كيف الإنسان العالم لكى يكون أكثر . . وفى تكيف نفسها من أجل البقاء ، دون أهداف يتوجب تحقيقها وخيارات لا بد من القيام بها ، لا تستطيع الحيوانات حيونة العالم . . إذا ستكون حيونة العالم مرتبطة بشكل وثيق بحيونة الحيوانات وهذا يفترض أن لدى الحيوانات وعياً مسبقاً بأنها غير كاملة ، مما يشغلها بالبحث المستمر . . وعلى كل ، ففى الواقع وفى الوقت

الذي يبني فيه النحل خلاياه بمهارة ويصنع العسل يظل النحل
نحلاً في علاقته مع العالم .

أما بالنسبة للإنسان ، باعتباره كائناً ممارساً ، فإن تحويل
العالم يعنى أنسته ، حتى لو كانت أنسة العالم لا تدل بعد
على أنسة الإنسان . . وقد تعنى ببساطة تلقيح العالم بحضور
الإنسان الغريب والخلق ، وطبعه ببصمات أعماله . . ويمكن
أن تقود عملية تحويل العالم ، والتي تعكس هذا الحضور
للإنسان ، إلى أنسته ، وكذلك لا أنسته ، أى إلى نموه أو
تناقصه . . هذه البدائل تكشف للإنسان عن طبيعته المعقدة أو
المركبة وتطرح مشكلة أمامه تستوجب اختيار هذا المسلك أو
ذاك . . وكثيراً ما تفيد عملية التحول هذه ذاتها وتفيد حريته في
الاختيار . . ومع ذلك ، ولما كان الإنسان يخضب العالم
بحضوره المتأمل/المفكر ، كان الإنسان وحده القادر على
الأنسة واللائسة فالأنسة هى طوباويته التى يعلنها بإرادة
العمليات اللامؤنسة . .

إن تأملية الإنسان غائبة علاقته بالعالم ما كانت لتكون
ممكنة لو لم تحدث هذه العلاقات فى محيط تاريخي ومادى . .
ليس هناك غائبة دون تفكير نقدى كما أنه لا معنى للغائبة خارج
مثالية من الأحداث الزمنية المتواصلة . . أو بالنسبة للإنسان
ليس هناك هنا بالنسبة إلى هناك دون أن تكون مرتبطة بالآن ومن
قبل وبمسبقاً وما بعد . . وهكذا فعلاقات الإنسان بالعالم
تاريخية فى جوهرها ، تماماً كالإنسان نفسه . . فالإنسان لا
يصنع التاريخ الذى يصفه وحسب . بل إنه يستطيع أن يسرد
تاريخ هذا الصنع المتبادل . . وكما يقول تيلهارك تشوردن

فيحوله إلى إنسان خلال عملية التطور ، يصبح الإنسان قادراً على أن يكون له سيرة . . وبالعكس فالحيوانات معمورة في زمن هو ملك للإنسان وليس للحيوان .

هناك فارق جوهري آخر بين علاقات الإنسان بالعالم واتصالات الحيوانات بالعالم : فالإنسان وحده الذي يعمل . . فالحصان مثلاً يفتقد ما يميز الإنسان وحده ، وهو يشير إليه ماركس في مثاله عن النحل ، ففي نهاية كل عملية جهد ، تحصل على النتيجة التي كانت موجودة بالفعل في خيال العامل عند بدايتها (أنظر رأس المال) . . فالفعل بدون هذا البعد لا يكون عملاً . . وسواء في الحقل ، أم في السيرك ، بعكس ما يبدو العمل الظاهر للحصان عمل الإنسان . . فالفعل عمل لا بسبب الجهد العضلي الأكثر أو الأقل الذي يبذله ، من الكائن الحي الفاعل ولكن بسبب وعي الفاعل بجهد ، وإمكانية برمجة الفعل وخلق المعدات واستعمالها للتوسط بينه وبين هدف نشاطه ووعيه بأن له أهدافاً ، والتنبؤ بالنتائج . . وأكثر من ذلك لكي يكون الفعل عملاً ، يجب أن تنتج عنه منتجات مهمة والتي إن تميزت عن الذات الفاعلة فهي في نفس الوقت تكييفية وتصبح موضوع تفكير . . وكما يعمل الإنسان في العالم بشكل فعال ، محولاً إياه بعمله ، يتكيف وعيه بدوره تاريخياً وثقافياً من خلال قلب الممارسة . . ووفقاً لتوعية هذا التكيف ، يحقق وعي الإنسان مستويات متعددة في محيط الواقع الثقافي - التاريخي . . ونحن ننوى تحليل هذه المستويات من الوعي كخطوة أخرى باتجاه فهم عملية التوعية .

التكيف التاريخي ومستويات الوعي :

لكي نفهم مستويات الوعي ، لا بد لنا أن نفهم الواقع الثقافي التاريخي ، باعتباره بنية عليا على علاقة ببنية تحتية . . وبالتالي سنحاول أن نفهم ولو بشكل نسبي غير مطلق الخصائص الأساس للشكل التاريخي - الثقافي الذي تماثله هذه المستويات . .

ليس الهدف محاولة دراسة مصادر الوعي وتطوره التاريخي ، بل أن نقدم تحليلاً تمهيدياً ملموساً لمستويات الوعي في واقع أمريكا اللاتينية . . وهذا لا يبطل صلاحية مثل هذا التحليل لمناطق أخرى من العالم الثالث ، ولا لتلك المناطق من المدن المغتربة التي تربط هويتها بالعالم الثالث باعتبارها « مناطق صمت » .

سندرس أولاً ذلك الشكل التاريخي - الثقافي الذي أسميناه « ثقافة الصمت » . . وهذا الشكل الثقافي هو تعبير بنسوى قومي يكيف نوعاً خاصاً من الوعي . . وكما يبين (ألتوسر) ALTHUSSER ، تحدد ثقافة الصمت تضافرياً (للبنية التحتية التي تتأصل فيها) .

ولا يمكن فهم ثقافة الصمت إلا إذا أخذت ككل في مجموعها الكلي الذي يشكل في حد ذاته جزءاً من كل أكبر . . وفي هذا الكل الأكبر يجب علينا أيضاً أن ندرك الثقافة أو الثقافات التي تحدد صوت « ثقافة الصمت » ونحن لا نعني أن ثقافة الصمت كيان خلقته المدن الكبرى في معامل متخصصة

ثم صدرته إلى العالم الثالث .. كما أنه من غير الصحيح ، على أى حال ، أن ثقافة الصمت تظهر بالتولد التلقائي .. ففى الواقع تولد ثقافة الصمت فى العلاقة بين العالم الثالث والمتقدم . ليس المسيطر هو الذى يبنى ثقافة ويفرضها على المسيطر عليه .. ذلك أن هذه الثقافة هى نتاج العلاقات البنيوية بين المسيطر عليهم والمسيطرين .. وهكذا فإن فهم ثقافة الصمت يفترض مسبقاً تحليل البنية كظاهرة علائقية تولد أشكالاً مختلفة من الوجود والتفكير والتعبير ، الخاصة « بثقافة الصمت » والخاصة بالثقافة التى لها صوت .

يجب علينا أن نتفادى كلا الموقفين الذين انتقدناهما سابقاً فى هذه المقالة : الموضوعية التى تؤدى إلى الميكانيكية ، والمثالية التى تؤدى إلى الأنانية (الإشرافية) وبالإضافة إلى ذلك لا بد لنا أن نحذر من إضفاء الصيغة المثالية على البنية الفوقية ، وبذلك نفصلها عن البنية التحتية .. وإذا ما قللنا من أهمية البنية الفوقية أو البنية التحتية ، فسيكون من المستحيل تفسير البناء الاجتماعى ذاته .. فالبناء الاجتماعى ليس شيئاً تجريدياً : فهو يوجد فى الجدل بين البنى الفوقية - التحتية .. وما لم نفهم هذا الجدل فلن نفهم جدلية التغيير والديمومة باعتبارهما تعبيراً عن البناء الاجتماعى ..

صحيح أن البنية التحتية ، التى تخلق فى العلاقات التى يحول بهما الإنسان العالم ، تفضى إلى البنية الفوقية .. ولكن

من الصواب أيضاً أن الأخيرة ، وقد توسطها الإنسان ، الذى يتشرب أساطيرها يتغلب على البنية التحتية ويحددها تضافرياً . . ولولا ديناميكية هذه العلاقات غير المستقرة التى يوجد فيها الإنسان ويعمل فى العالم ، لما أمكننا الحديث عن البناء الاجتماعى ولا على الإنسان ولا على عالم إنسانى . .

ولنعد إلى العلاقات، بين المجتمع الحضرى والمجتمع التابع باعتبارهما مصدر سبل الوجود والتفكير والتغير الخاص لكل منهما . . وبالرغم من أن كلاً من المجتمع الحضرى والمجتمع التابع كلمتان فى حد ذاتها ، فهما جزء من كل أكبر وهو المحيط الاقتصادى ولتاريخى ، والثقافى ، والسياسى الذى تنشأ فيه علاقاتهما المتبادلة . . وبالرغم من أن المحيط الذى ترتبط فيه هذه المجتمعات الواحد منها بالآخر ، فإن نوعية العلاقات تختلف بوضوح فى كل حالة ، إذ أنها محددة بالدور الذى يلعبه كل منهما فى المحيط الكلى لعلاقاتهما المتبادلة . . إن تأثير المجتمع الحضرى فى المجتمع التابع ذو طابع توجهى/إدارى فى حين يحمل فعل/ نشاط المجتمع الشئ التابع سواء أكان استجابة أو مبادرة ، طابع التبعية . .

تعكس العلاقات بين المسيطر والمسيطر عليهم المحيط الاجتماعى الأوسع ، حتى عندما تكون رسمياً شخصية . . إذ أن مثل هذه العلاقات تعنى ضمناً تشرب المسيطر عليهم للأساطير الثقافية للمسيطرين . . وبالمثل يتشرب المجتمع التابع قيم وأسلوب حياة المجتمع المدنى حيث أن بنية هذا الأخير

تشكل بنية الأول . . وينجم عن ذلك ازدواجية المجتمع التابع ، وغموضه ووجوده دون أن يكون ذاته ، كذلك التكافؤ الضدى المميز بخبرته الطويلة فى التبعية ، فهو ينجذب إلى المجتمع الحضرى ويرفضه كذلك . .

كما أن إرادة المجتمع الموجه تشكل البنية التحتية للمجتمع التابع . . ومن ثم البنية الفوقية الناتجة تعكس عدم مصداقية البنية التحتية . . وفى حين تستطيع الحواجز أن تستوعب أزماتها الأيديولوجية عن طريق القوة الاقتصادية والتكنولوجيا المتطورة جداً ، نجد البنية التابعة أضعف من أن تتحمل أبسط ظاهرة شعبية . . وهذا يفسر الصرامة المألوفة فى البنية التابعة . .

والمجتمع التابع مجتمع صامت بحكم التعريف . . وصوته غير حقيقى ، بل أنه مجرد صدى لصوت الحاضرة إذ تتحدث الحاضرة بكل السبل ، بينما يصغى المجتمع التابع . .

إن صمت المجتمع التابع مقارنة بالمجتمع الموجه يتكرر فى علاقات المجتمع التابع نفسه . . فالصفوة السلطوية فى هذا المجتمع صامته فى وجه الحاضرة وتعمل بدورها على إسكات شعوبها . . ولا يمكن لمثل هذا المجتمع التابع أن يبدد هذا الصمت تجاه المجتمع الموجه إلا عندما تبدد شعوب المجتمعات التابعة ثقافة الصمت هذه وتكسب حقها فى الكلام (التعبير) - أى عندما تحول التغيرات البنيوية الجذرية للمجتمع التابع . .

ومن ناحية أخرى ذا ما وصلت مجموعة ما إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري كما حدث في البيرو مؤخراً ، وبدأت في اتخاذ إجراءات وطنية اقتصادية وثقافية وعسكرية فإن سياستها تخلق تناقضاً جديداً ، تكون نتائجه إحدى النتائج التالية . . أولاً ، قد يتجاوز النظام الجديد حتى نواياه هو ويضطر إلى الانفصال نهائياً عن ثقافة الصمت داخلياً وخارجياً . . وخشية من سطوة الجماهير - قد يتراجع ويفرض الصمت من جديد على الشعب . . وثانياً ، قد ترعى الحكومة نوعاً جديداً من الشعبية ، وانطلاقاً من الإجراءات الوطنية الأولية ، قد تتوهم الجماهير المغمورة أنها تشارك في تحويل مجتمعها ، بينما في واقع الأمر يتم التحكم فيها بذلك . . ففي البيرو حيث تابعت المجموعة التي استولت على السلطة 1968 م أهدافها السياسية ، أحدثت العديد من سلوكياتها شروخاً في أكبر المناطق انغلاقاً في مجتمع البيرو . . ومن خلال هذه الشروخ بدأت الجماهير في الخروج من صمتها بمواقف أكثر صرامة . . وما أن تتم تلبية مطالب الجماهير حتى تنجح لا لتكرارها وحسب بل وإلى تغيير طبيعتها . .

وهكذا ينتهي التوجس الجماهيري أيضاً إلى خلق تناقضات خطيرة للمجموعة السلطوية . . وستجد نفسها مضطرة إما لأن تفتح ثقافة الصمت عنوة أو إلى إحيائها . . ويبدو لنا أن هذا هو السبب الذي يجعل من لصعب على أية حكومة في المرحلة التاريخية الحالية في أمريكا اللاتينية أن تحتفظ حتى ولو نسبياً ، بسياسة نضالية مستقلة تجاه ثقافة المدينة أو الحواضر في الوقت الذي تحافظ فيه على ثقافة الصمت داخلياً . .

وفى عام 1961 م وصل جانيو كواروس إلى السلطة فى البرازيل فيما كان تقريباً أعظم انتصار انتخابى فى تاريخ الأمة . . وقد حاول أن ينفذ سياسة متناقضة قوامها الاستقلال عن الحواضر والسيطرة على الشعب . . وبعد سبعة أشهر من توليه السلطة أعلن فجأة للأمة أنه مضطر للتخلى عن الرئاسة بضغط من نفس القوى الخفية التى دفعت الرئيس جيتوليو فاجرا إلى الانتحار . . وهكذا غادر بكل أسف متوجهاً إلى لندن . .

لقد سلكت المجموعة العسكرية البرازيلية التى أطاحت بحكومة جولارت عام 1964 م ، والتى وصفت عملها بصورة رائعة على أنه ثورة ، سلكاً مسلكاً مترابطاً منطقياً وفقاً لتحليلنا السابق سياسة عبودية ثابتة . . تجاه الحواضر وفرض الصمت بعنف على الشعب البرازيلى نفسه . . ولا يمكن أن تكون سياسة العبودية للحواضر وتفجير ثقافة الصمت الداخلية قابلتين للحياة . . وكذلك الأمر بالنسبة لسياسة الاستقلال عن الحواضر فى الوقت الذى تستمر فيه ثقافة الصمت فى الداخل . .

لقد تأسست المجتمعات الأمريكية اللاتينية كمجتمعات مغلقة منذ أن استعمرتها إسبانيا والبرتغال عندما بدأت ثقافة الصمت تتشكل . . وبإستثناء كوبا ما بعد الثورة ما تزال هذه المجتمعات مغلقة حتى يومنا هذا . . إنها مجتمعات تابعة كل ما يتغير بالنسبة لها هو أقطاب صنع القرارات التى كانوا هم موضوعها . . . فى فترات تاريخية مختلفة . . البرتغال ، إسبانيا ، إنجلترا ، أو الولايات المتحدة . .

إن المجتمعات الأمريكية اللاتينية مجتمعات مغلقة يميزها نظام اجتماعي هرمي صارم ، تديره الأسواق الداخلية ، حيث أن اقتصادها مسير من الخارج ، تصدير المواد الخام والبضائع المصنعة ، دون أن يكون لها صوت فى أى من العمليتين ، ونظام تعليمي متقلب تشكل مدارسه وسيلة للمحافظة على الأوضاع القائمة ونسبة عالية من الأمية والمرض ، بما فى ذلك ما يسمى سذاجة بالأمراض الاستوائية والتي هى فى واقع الأمر أمراض التخلف والتبعية ، ونسب مخيفة من الوفيات بين الأطفال ، سوء التغذية ، والتي غالباً ما كان لها تأثير غير قابل للإصلاح على القدرات العقلية ، وانخفاض متوسط العمر المتوقع .. ونسبة عالية من الجريمة ..

كما أن هناك ضرباً من الوعى يقابل الواقع الملموس لمثل هذه المجتمعات التابعة . وهو وعى تاريخي تكيفه البنى الاجتماعية .. إن الخصوصية الأساسية لهذا الوعى ، التابع يتبعه المجتمع الذى يعمل وفقاً لبنيته ، فهى التزامه الظاهري بالواقع .. وكما أوضحت فى كتابي تعليم المقهورين فالوعى المسيطر عليه لا يملك السافة الكافية بينه وبين الواقع حتى يوضعها لكى يعرفها بكيفية نقدية .. ونحن نسمى هذا الضرب من الوعى شبه لازم (أنظر كتابي) .

والوعى اللازم نمطى بالبنى المغلقة .. وبسبب انغماس هذا الوعى الظاهري فى الواقع الملموس يفشل فى إدراك العديد من تحديات الواقع ، أو يدركها بشكل مشوه .. أما عن لازميته الظاهرة فهى نوع من الطمس تفرضه الظروف

الموضوعية .. وبسبب هذا الطمس فالمعطيات الوحيدة التى يستوعبها الوعى المهيمن عليه هى تلك المعلومات التى تدور فى ذلك تجربته المعاشية .. ولا يمكن لهذا الضرب من الوعى أن يشىء وقائع ومواقف الحياة اليومية الإشكالية .. فالإنسان الذى يوجد وعيه فى هذا المستوى من الانعماس الظاهرى ، ينفذ إلى ما نسميه بالوعى البنىوى ، الذى يشكل نفسه ويعيد تشكيلها من الواقع الملموس فى إدراك الوقائع والمواقف الإشكالية .. نظراً لافتقار الإنسان للإدراك البنىوى ، يعزو مصادر مثل هذه الوقائع والمواقف فى حياته إما إلى واقع أعلى أو إلى شىء ما بداخله ، وفى كلتى الحالتين فهو يعزوها إلى أشياء خارجة عن الواقع الموضوعى .. وليس من الصعب أن نتلمس هنا مصدر المواقف الخبرية التى يتبناها الناس فى بعض المواقف فإذا كان تفسير مثل هذه المواقف يكمن فى قوة علوية أو فى عدم القدرة الطبيعية للإنسان ذاته ، فمن الواضح أن عمله لن يتجه نحو تحويل الواقع ، بل باتجاه الكائنات العلوية المسؤولة عن المواقف الإشكالية ، أو باتجاه عدم القدرة المفترضة تلك .. وبالتالي فإن فعاليتهم تنسم بالسحر الدفاعى أو العلاجى .. وهكذا كان فلاحو أمريكا اللاتينية وفلاحو العالم الثالث بشكل عام يمارسون ، قبل موسم الزرع أو الحصاد ، نوعاً من الطقوس السحرية التى غالباً ما تكون ذات طبيعة دينية توفيقية .. وحتى عندما تتطور هذه الطقوس إلى تقاليد ثقافية ، فإنها تظل مؤثرة لفترة ما ، ذلك أن تحويل الطقوس السحرية إلى تعبير عن التقاليد لا يحدث فجأة ومرة أخرى فهو عملية تفترض ضمناً الجدل بين الموضوعية والذاتية ..

وتحت تأثير التغيرات البنيوية التحتية التي أحدثت
التصدعات الأولى فى المجتمعات الأمريكية اللاتينية ، دخلت
هذه المجتمعات المرحلة الحالية من التحول التاريخى
والثقافى - بعضها بشكل أكثر حدة من غيرها . . . وفيما يخص
البرازيل بالذات فقد بدأت هذه العملية بإلغاء الرق فى نهاية
القرن التاسع عشر ، واشتدت خلال الحرب العالمية الأولى ثم
مرة أخرى خلال كساد عام 1929 م . . . واشتدت خلال الحرب
العالمية الثانية ، واستمرت بشكل متقطع حتى 1964 م عندما
أعاد الانقلاب العسكرى الأمة بالعنف إلى ثقافة الصمت . .

ومع ذلك فالمهم هو أنه ما إن تبدأ الشروخ تظهر فى
البنية ، وما إن تدخل المجتمعات الفترة الانتقالية ، حتى تبدأ
فوراً الحركات الأولى لظهور الجماهير التى ظلت حتى الآن
مغمورة وصامتة وتبدأ فى إظهار نفسها . . وعلى كل فهذا لا
يعنى أن الحركات باتجاه الظهور تبدد تلقائياً ثقافة الصمت . .
ذلك أن المجتمعات الانتقالية تظل كليات صامتة فى علاقاتها
مع الحواضر . ومع ذلك فمن داخل هذه المجتمعات ترغم
ظاهرة الجماهير الصاعدة الصفوات السلطوية على تجريب
أشكال جديدة للابقاء على صمت الجماهير ، حيث أن
التغيرات البنيوية التى تحرّك / ظهور الجماهير تحدث فى نفس
الوقت تغييراً كيفياً/ نوعياً فى وعى الجماهير المغمورة ظاهرياً
وشبه اللازم .

من المعطيات الموضوعية للمجتمع المغلق وأحد مكوناته
البنيوية هو صمت الجماهير ، وهو صمت لا يكسره إلا الثورة أو

التمرد الفعال من حين إلى آخر . . وعندما يتزامن هذا الصمت مع إدراك الجماهير الجبرى للواقع ، قلما تشك الجماهير فى الصفوة السلطوية التى تفرض الصمت على الجماهير . . وعندما يبدأ المجتمع المغلق فى التصدع تصبح المعطيات الجديدة هى حضور الجماهير الملح . . وهكذا لا يصح من المعطيات غير القابلة للتغيير بل نتاج واقع يمكن بل يجب تحويله . . وهذه النقلة التاريخية التى تعيشها المجتمعات الأمريكية اللاتينية بدرجات أكثر أو أقل ، يقابلها مرحلة جديدة من الوعى الشعبى ، ألا وهى الانتقالية الساذجة . ففى السابق كان الوعى الشعبى شبه لازم ومحصوراً فى مجابهة التحديات ذات العلاقة بالحاجيات البيولوجية . . أما فى عملية الخروج من الصمت ، فإن قدرة الوعى الشعبى تتسع ليصبح الإنسان قادراً على رؤية وتمييز ما لم يكن محدداً من قبل . .

وبالرغم من أنه يمكن تفسير الفرق الكيفى بين الوعى شبه اللازم والوعى الانتقالي الساذج عن طريق ظاهرة البروز الناتجة عن التحولات البنيوية فى المجتمع ، فليست هناك حدود صارمة بين اللحظات التاريخية التى تنتج تغييرات كيفية فى وعى الإنسان . . وفى كثير من الجوانب يظل الوعى شبه اللازم حاضراً فى الوعى الانتقالي الساذج . . ففى أمريكا اللاتينية ، مثلاً تكاد تكون كل الجماهير الفلاحية ما تزال فى مرحلة الانغماس الظاهر وهى مرحلة ذات تاريخ أطول بكثير من مرحلة الظهور الحالية . . لقد غرس وعى الفلاحين شبه اللازم العديد من الميثولوجيات فى المرحلة السابقة وهى مستمرة

بالرغم من التغير فى إدراك الانتقالية . . . وعليه يبرز الوعى الانتقالي كوعى ساذج وه سيطر عليه كسابقه . . ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن الوعى الآن أكثر قابلية لإدراك مصدر وجوده الغامض فى الظروف الموضوعية للمجتمع . .

إن ظهور الوعى الشعبى يقتضى ضمناً التغلب على ثقافة الصمت أو على الأقل حضور الجماهير فى العملية التاريخية وممارستها الضغط على الصفوة السلطوية . . ولا يمكن أن يفهم إلا باعتباره أحد أبعاد ظاهرة أكثر تعقيداً . . وبعبارة أخرى فإن ظهور الوعى الشعبى ، بالرغم من كونه لازماً ساذجة ، يشكل أيضاً لحظة فى تطور وعى الصفوة السلطوية . . وفى البنية التى تتسم بالتسلط لا يمكن أن يوجد صمت الجماهير لولا الصفوة السلطوية التى تعمل على إسكاتها ولم تكن هناك صفوة سلطوية لولا الجماهير . . وكما أن هناك لحظة مفاجئة بين الجماهير عندما تبدأ ترى ما لم تراه من قبل ، هناك مفاجأة مماثلة بين الصفوة التى فى السلطة عندما تجد أن الجماهير قد كشفتها . . ويشير هذا الكشف الثنائى القلق فى كل من الجماهير والصفوة السلطوية . . وهكذا تصبح الجماهير متعطشة للحرية ، متلهفة للقضاء على الصمت الذى طالما وجدت فيه . . وتتوق السلطوية للإبقاء على الوضع القائم وذلك بالسماح بتحولات سطحية فقط تستهدف الحيلولة دون أى تغير حقيقى فى سلطاتهم فى التقرير .

وفى العملية الانتقالية تستلم شخصية «المجتمع المغلق»

التي يتغلب عليها الجمود تدريجياً للدينامية في كل أبعاد الحياة الاجتماعية . . وتطفو التناقضات على السطح مثيرة الصراعات التي يزداد فيها إلحاح الوعي الشعبي مسبباً المزيد من القلق لدى الصفوة . . وما أن تتمدد خطوط هذا الانتقال التاريخي بشكل أدق مسطرة الضوء على التناقضات الكامنة في المجتمع التابع حتى تسعى مجموعات المثقفين والطلبة والذين ينتمون إلى الصفوة ذات الامتيازات لأن تصبح منهمكة في الواقع الاجتماعي ، إلى رفض البرامج المستوردة والحلول الجاهزة . . وهكذا بالتدريج لا تعود الفنون مجرد تعبير عن الحياة السهلة للبرجوازية المرفهة ، وتجد وحيها في الحياة الصعبة للجماهير . . ويبدأ الشعراء في الحديث عن الأيدي الفلاحة والعمال لا باعتبارها مفاهيم مجردة وميتافيزيقية بل باعتبار هؤلاء بشراً ملموسين وذوى حياة ملموسة .

في حالة البرازيل لقد دفعت هذه التغيرات النوعية كل مستويات الحياة الإبداعية . . وما أن اشتدت مرحلة الانتقال حتى ركزت هذه المجموعات النشطة أكثر فأكثر على واقعها القومي لكي تعرفه بشكل أفضل ولتخلق سبل التغلب على حالة التبعية التي كان يعيشها مجتمعتها . .

ولأن الأنماط السياسية القديمة للمجتمع المغلق لم تعد كافية حيث تشكل الجماهير حضوراً تاريخياً متنامياً ، كان للمرحلة الانتقالية أيضاً أن تولد أسلوباً جديداً في الحياة السياسية . . ففي المجتمع المغلق يتوسط القادة السياسيون

الذى يمثلون الزمرات السفوية المختلفة العلاقات بين الصفوة والجماهير المغمورة ظاهرياً . . . ففي البرازيل نجد القادة السياسيين ذوى النزعة الأبوية الثابتة لا يملكون أراضيهم وحسب بل كذلك الجماهير الشعبية الصامتة والخائفة التى تقع تحت سيطرتهم . . . ولما كانت الصحة الجماهيرية التى أحدثتها الشروع فى المجتمع لم تمس المناطق الريفية فى أمريكا اللاتينية فقد ظلت هذه المناطق فى الغالب تحت سيطرة القادة السياسيين . . . وبالمقابل ففي المراكز الحضرية - المدنية برز نوع من القيادة للتوسط بين الصفوة السلطوية والجماهير الصاعدة القيادة الشعبية وهناك ميزة واحدة للقيادة الشعبية تستحق اهتمامنا الخاص - إنى أشير إلى طبيعتها التحكيمية .

وبالرغم من أن خروج الجماهير من الصمت لا يسمح للأسلوب السياسى للمجتمع المغلق سابقاً بالاستمرار ، فإن ذلك لا يعنى أن الجماهير قادرة على الحديث نيابة عن نفسها . . . إنها لم تزد عن مجرد أنها انتقلت من مرحلة الانغماس الظاهرى إلى حالة الإدراك الانتقالى الساذج . . . وبالتالي يمكن القول بأن القيادة الشعبية استجابة كافية للحضور الجديد للجماهير فى العملية التاريخية . . . ولكنها قيادة تلاعبية ، تتلاعب بالجماهير نظراً لأنها لا تستطيع أن تتلاعب بالصفوة . . .

يجب النظر إلى التحكم الشعبى من منظورين مختلفين : فهو من ناحية بلا شك نوع من المخدر السياسى الذى لا يحافظ على سذاجة الوعى الصاعد/ المتنامى وحسب ، بل

وكذلك على تعود الشعب على أن يوجه ومن ناحية أخرى ، وإلى الحد الذى يستخدم فيه المراوغة الشعبية مطالب واحتجاجات الجماهير ، فمن التناقض الظاهرى أن المراوغة السياسية تسرع بالعملية التى تنيط بها الجماهير اللثام عن الواقع . . ويلخص هذا التناقض الظاهرى الطبيعة الغامضة للشعبية فهى مراوغة ولكنها فى نفس الوقت عامل من عوامل التعبئة الديمقراطية . .

وهكذا لا يقتصر نظام الحياة السياسية الجديد الذى نجده فى المجتمعات الانتقالية على الدور المراوغ لقياداته التى تتوسط بين الجماهير والصفوة . . حقاً أن الأسلوب الشعبى فى العمل السياسى ينتهى بخلق ظروف تمكن المجموعات الشبائية والمثقفين من ممارسة المشاركة السياسية مع الجماهير . . وبالرغم من أن ذلك شاهد بين شواهد الأبوية التحكيمية ، فإن الشعبية توفر إمكانية التحليل النقدى للتحكم ذاته . . ومن خلال كل التفاعل بين التناقضات والغموض نجد أن ظهور الجماهير الشعبية فى المجتمعات الانتقالية يمهّد الطريق أمام الجماهير لتصبح واعية بحالتها التابعة . .

وكما قلنا فإن انتقال الجماهير من حالة الوعى شبه اللازم إلى حالة الوعى الانتقالي الساذج أيضاً لحظة الوعى لدى الصفوة ، وهى لحظة جاسمة بالنسبة للوعى النقدى للمجموعات التقدمية . . وفى البداية يظهر وعى هش بين مجموعات صغيرة من المثقفين ممن لا يزالون مطبوعين بالغربة الثقافية للمجتمع ككل ، وهى غربة يدعمها تكوينهم الجامعى . . وما إن تظهر التناقضات النموذجية فى المجتمع الذى يمر بمرحلة الانتقال

بشكل أوضح حتى تتضاعف هذه المجموعات وتصبح قادرة على التمييز بشكل أدق بين مكونات مجتمعتها . . . ويجنح أكثر فأكثر إلى الانضمام إلى الجماهير الشعبية بطرق شتى عن طريق الإدراك ، والفنون التشكيلية ، والمسرح ، والموسيقى ، والتربية ، والرياضة ، والفن الشعبي . . . على أن الأمر الأهم هو الصلة الوثيقة بالجماهير التي تستطيع بعض هذه الجماعات أن تحققها . . .

وفي هذه المرحلة فإن الوعي النقدي المتنامي لهذه المجموعات النقدية ، والذي يصدر عن الانتقالية الساذجة للجماهير الصاعدة يصبح تحدياً لوعي الصفوة السلطوية . . . إن المجتمعات التي تجد نفسها في هذه المرحلة التاريخية التي لا يمكن فهمها خارج إطار الاستيعاب النقدي للكل الذي يشكل جزء منه ، يعيشون في مناخ ما قبل الثورة والذي يشكل الانقلاب نقضه الجدلي . . .

لقد أصبحت الانقلابات في أمريكا اللاتينية الصفوة السلطوية الاقتصادية والعسكرية على أزمات التملسل الشعبي وتختلف هذه الاستجابة - حسب التأثير النسبي للعسكرياتية . . . ووفقاً لدرجة عنفه وقمع الشعب الذي يتبع ذلك ، ويحيى الانقلاب من جديد الأنماط القديمة للسلوك بين الناس ، وهي أنماط تنتمي إلى حالة الانغماس الظاهري السابقة لديهم . . . وهذا الإحياء من جديد لثقافة الصمت وحده الذي يفسر سلبية الجماهير عندما تواجه عنف وحكم الانقلابات العسكرية الأمريكية اللاتينية التعسفي .

ولا بد من التأكيد على أنه لا يمكن فهم الانقلابات العسكرية فى أمريكا اللاتينية دون رؤية جدلية للواقع ، وأية محاولة لفهم هذه الانقلابات بطريقة آلية محضة ستؤدى إلى صورة مشوهة . فالمجتمعات الأمريكية اللاتينية فى مرحلة الانتقالية بمشاكلها الكثيفة وظروف التبعية التى تكشفها يومياً ، تواجه احتمالين متناقضين : الثورة أو الانقلاب العسكرى . . وكلما ازدادت قوة الأسس الأيديولوجية للانقلاب ، كلما زادت استحالة إمكانية عودة المجتمع فيما بعد إلى نفس الأسلوب السياسى الذى خلق ذات الظروف التى أدت إلى الانقلاب . . فالانقلاب العسكرى يغير كيفية عملية الانتقال التاريخى للمجتمع ، ويحدد بداية مرحلة انتقالية جديدة . . ففى المرحلة الانتقالية الأصلية ، يكون الانقلاب ويؤكد باعتباره قوة تعسفية مضادة للسلطة الشعبية ينجح باتجاه المزيد من الصلابة قبل الاستمرار فى إمكانية حدوث الثورة . .

ففى البرازيل تقدم الفترة الانتقالية التى تميزت بالانقلاب خلاصة الأيديولوجية التنموية التى تقوم على تسليم الاقتصاد الوطنى للمصالح الأجنبية ، وهى أيديولوجية تستبدل على حد قول كاردوسو فكرة المشاريع الدولية الكبيرة بفكرة احتكار الدولة كأساس للتنمية . . إن إحدى المتطلبات الأساسية لمثل هذه الأيديولوجية هى بالضرورة إسكات القطاعات الشعبية وبالتالي إبعادها عن مجال اتخاذ القرار . . وعليه فإن على القوى الشعبية أن تتجنب الوهم الساذج الذى يذهب إلى أن هذه المرحلة الانتقالية قد توفر مداخل تمكن الجماهير من إعادة تأسيس

وتيرة المرحلة الانتقالية السابقة ، والتي يماثل نموذجها السياسى
الأيدولوجية الشعبية فى التنمية . .

إن المداخل التى تقدمها المرحلة الانتقالية الجديدة لها
معانيها الخاصة . . ذلك أن مثل هذه المداخل لا تعنى العودة
إلى ما كان كائناً بل مسألة أخذ وعطاء ضمن تفاعل التكيفات
التي تتطلبها الأيدولوجية السائدة . . وأياً كانت أيدولوجيتها ،
فالمرحلة الانتقالية الجديدة تتحدى القوى الشعبية لأن تجد
طريقة جيدة تماماً للتقدم متميزة عن نشاطها فى الفترة السابقة
عندما كانت تصارع القوى التى جاءت بها تلك الانقلابات إلى
السلطة .

إن أحد أسباب التغير واضح بما فيه الكفاية . . إذ بسبب
القمع الذى يفرضه الانقلاب ، على القوى الشعبية أن تعمل
فى صمت ، والعمل الصامت يتطلب دراية صعبة بالإضافة إلى
ذلك ، فإن على القوى الشعبية أن تبحث عن طريق تواجه بها
تأثيرات تنشيط ثقافة الصمت من جديد ، التى ولدت تاريخياً
الوعى المسيطر عليه .

وتحت هذه الظروف ، ما هى إمكانية البقاء للوعى
المتصاعد والذى وصل مرحلة الانتقال الساذج ؟ على هذا
السؤال لا بد أن توجد فى تحليل أعمق للمرحلة الانتقالية التى
شنها الانقلاب العسكرى . ولما كانت الثورة ما تزال ممكنة
فى هذه المرحلة ، سيتركز تحليلنا على المواجهة الجدلية بين
المشروع الثورى والنظام الجديد . .

العمل الثقافى والثورة الثقافية :

ليس من الضرورى أن تنبىء المجموعات الثورية بأنها النقيض المعادى لليمين . . وعلى أى حال فلن يكون من غير المناسب أن تؤكد أن هذا العداء الذى يتولد من أهدافها المتنافرة ، لا بد وأن يعبر عن نفسه من خلال سلوك معاد هو الآخر . . يجب أن يكون هناك اختلافاً فى ممارسات كل من اليمين والمجموعات الثورية الأمر الذى يحدددهما ، بما يجعل اختيارات كل مجموعة واضحة . . ويتضح الفرق بين هاتين المجموعتين من طبيعة المجموعات الثورية واستحالة أن يكون اليمين ثورياً . . وهذا التمييز ليس تعسفياً ، بل إنه غير كاف للتمييز بشكل جذرى بين أهداف وأشكال العمل التى تنتهجها المجموعات الثورية والمجموعات اليمينية . .

والى الحد الذى تعنى فيه الثورية الحقيقية إدانة ورفض الواقع الظالم والإعلان عن مشروع مسبق فالقيادة الثورية لا تستطيع بدون الجماهير :

- 1 - أن تدین الواقع دون أن تعرف الواقع .
- 2 - الإعلان عن واقع جديد دون أن يكون لديها مشروع مقترح والذى بالرغم من ظهوره أثناء الإدانة ، لا يصبح مشروعاً قابلاً للحياة إلا فى الممارسة .
- 3 - معرفة الواقع دون الاعتماد على الشعب وكذلك على الحقائق الموضوعية كمصدر لمعرفته . .

4 - أن يدين ويعلن بنفسه . .

5 - أن يخلق أساطير جديدة من خلال الإدانة والتبشير ، يجب أن تكون الإدانة والتبشير لا أيديولوجياً بالقدر الذى تنبع فيه من المعرفة العلمية لواقع . .

6 - التخلي عن تبادل الآراء مع الشعب ليس خلال فترة الجدل بين الإدانة والتبشير . وتجسيد مشروع قابل للحياة وحسب ، بل كذلك أثناء عملية إعطاء المشروع واقعاً ملموساً فى حد ذاته .

وهكذا تقع القيادة الثورية فى تناقضات داخلية تعرض أهدافها للشبهة عندما تقف ضحية المفهوم القدرى للتاريخ ، فتحاول أن تروض الشعب ، آلياً باتجاه مستقبل تعرفه القيادة قبلياً والذي تعتقد أن الشعب غير قادر على معرفته . . وفى مثل هذه الحالة تفقد القيادة الثورية طوباويتها وتنتهى بالارتباط باليمين . . فاليمين لا يرفض ولا يبشر بشيء كما قلنا اللهم إلا إدانة أو رفض من يرفضه أو يدينه بالإعلان عن أساطيره الخاصة به . .

ومن ناحية أخرى المشروع الثورى الحقيقى هو عملية يتولى الشعب فيها دور الساحل فى مغامرة تحويل العالم وإعادة خلقه المحفوفة بالمخاطر والمجازفات . . وبالطبع سيعارض اليمين بالضرورة مثل هذا المشروع ، وسيحاول أن يجمده . . وهكذا كما يقول أريك فروم فالثورية نزاعة إلى الحياة فى حين أن اليمين بحكم جموده نزاع إلى الموت .

وتنجح الثورة لأن تكون ديناميكية أكثر منها جامدة ،
تجنح إلى الحياة بدلاً من الموت ، وتطلع إلى المستقبل
باعتباره تحدياً لإبداعات الإنسان بدلاً من كونه تكراراً للحاضر ،
وتنزع إلى الحب باعتباره تحريراً للذوات وليس تملكاً
باثولوجيا ، وتحن إلى عاطفة الحياة بدلاً من التجريدات
الباردة ، إلى الحياة جماعة بدلاً من الحياة القطيعة إلى الحوار
بدلاً من الصمت ، إلى الممارسة عوضاً عن القانون والنظام ،
يتجه الإنسان الذي ينظم نفسه بتأمل من أجل الفعل بدلاً من
الإنسان ينظم ليكون سلبياً إلى اللغة المبدعة والتوصيلية لا
الإشارات التقريرية ، إلى التحديات التأملية لا الشعارات
المؤنسة ثم إلى القيم المعاشة لا الأساطير المفروضة .

إن اليمين بحكم صلابته يفضل الميت على الحي ،
والجمود على الديناميكية ، والمستقبل باعتباره تكراراً للماضي
وليس مغامرة خلاقة ، وأشكال الحب الباثولوجي بدلاً من الحب
الحقيقي ، والتخطيط التافه والبارد بدلاً من عاطفة الحياة ،
والحياة القطيعة بدلاً من الحياة الحقيقية مع بعض ، إنسان
المؤسسات بدلاً من الإنسان الذي ينظم ، والأساطير المفروضة
بدلاً من القيم المجسدة ، والتوجهات بدلاً من اللغة الإبداعية
والتواصلية ، والشعارات بدلاً من التحديات ..

من الضروري جداً بالنسبة للثوريين أن يقفوا أكثر فأكثر
على الفرق الجوهرى الذى يفصلهم عن الصفوة اليمينية .. إذ
لا يكفى أن ندين عنف اليمين ، وموقفه الأرستقراطى

وأساطيره ، بل على الثوريين أن يرهنوا على احترامهم للجماهير، وإيمانهم وثقتهم بها، لا باعتبارهم ذلك استراتيجية بل باعتباره مطلباً تقتضيه الثورة .. وهذا الالتزام بالجماهير يعد جوهرياً في كل وقت .

وكما قلنا فبالنضحية بالجماهير عن طريق العنف ، يفرض الانقلاب من جديد مناخ « ثقافة الصمت » القديم .. فالجماهير وهى تقف على عتبات تجربتها كذوات فاعلة فى المجتمع ومشاركة فيه . تحتاج إلى إشارات تدلها على التعرف عمن يقفون معها ومن يقفون ضدها .. وتقدم هذه الإشارات ، أو الشواهد عن طريق مشاريع يقترحها أناس من خلال جدليتهم مع البيئة .. ويشكل كل مشروع كلاً متفاعلاً من الأهداف ، والطرق ، والإجراءات ، والتكنيك . ولا يتميز المشروع الثورى عن نظيره اليميني بأهدافه وحسب ، بل بواقعه الكلى .. إذ لا يمكن فصل طريقة المشروع عن محتواه وأهدافه ، كما لو كانت الوسائل محايدة ومناسبة بنفس الكيفية للتحرر والسيطرة .. ذلك أن مثل هذا المفهوم يعكس مثالية ساذجة تكتفى بالنوايا الذاتية للفرد الذى يعمل ..

إن المشروع الثورى يشغل بالنضال ضد البنى القمعية التى تسلب الإنسان الملموس باعتباره إنساناً يحرق نفسه ، فإن أى تنازل عفوى/ غير مقصود لصالح وسائل المضطهدين يشكل خطراً وتهديداً دائماً دائمين للمشروع الثورى ذاته .. ولا بد للثوريين من أن يطالبوا أنفسهم بتمسك صارم .. وباعتبار الثوريين بشراً

قد يقتربون أخطاء ، وهم عرضة للموارد ، ولكن لا يمكن أن يتصرفوا كالرجعيين ثم يسموا أنفسهم ثوريين . . يجب أن يكتفوا بنشاطاتهم للظروف التاريخية ، وذلك باستثمار الإمكانيات الحقيقية والفريدة المتوفرة . . دور الثوريين هو البحث عن أكفأ السبل وأكثرها قابلية للحياة لمساعدة الجماهير على الانتقال من مرحلة الوعي شبه الجامد أو مرحلة الوعي الانتقالي . . الساذج إلى مرحلة الوعي الفاعل . . هذا الاستغراق المحرر وحده متضمن في المشروع الثوري نفسه . . ولما كان المشروع الثوري مناضلاً في ممارسات الثوريين ، فقد كان كل مشروع ثوري عملاً ثقافياً ، بالأساس في طريقه لأن يصبح « ثورة ثقافية » .

الثورة عملية نقدية لا يمكن تحقيقها بدون العلم والتأمل . . وخلال العمل المتأمل في العالم المراد تحويله ، تدرك الجماهير أن العالم فعلاً يتعرض لعملية تحول . . ويعتبر العالم أثناء التحول وسيطاً للحوار بين الجماهير من جانب في عملية المعرفة والقيادة والثوريين في الطرف الآخر . . وإذا لم تسمح الظروف الموضوعية دائماً بمثل هذا الحوار ، فيمكن التحقق من وجودها بشهادة الثوريين أنفسهم .

لقد كان جيفارا شاهداً لا ينقطع عن الحوار الذي يوفره الثوريون مع الشعب . . . وكلما درسنا أعماله كلما أدركنا قناعاته بأن كل من أراد أن يكون ثورياً حقيقياً فلا بد أن يكون على اتصال وثيق بالجماهير ولم يتردد جيفارا يوماً في إدراك أن القدرة على الحب شرط لا غنى عنه للثوريين الحقيقيين . .

وفى الوقت الذى كان يشير فيه باستمرار إلى فشل الفلاحين فى المشاركة فى الحركة الثورية ، إلا أن إشاراته إليهم فى يومياته البوليفية لا تعبر عن كرهه لهم . ولم يفقد الأمل فى أنه بالنهاية يمكن الاعتماد على مشايكتهم . . . وبنفس روح التواصل كانت معسكرات الفدائيين الجيفاريين بمثابة الإطار النظرى الذى مكّنه وزملاؤه من تحليل الأحداث الملموسة التى كانوا يعيشونها ومكّنهم من تخطيط استراتيجية عملهم . .

لم يخلق جيفارا أية انقسامات بين الوسائل ، والمحتوى والأهداف ومشاريعه . . . وبالرغم من المخاطرة بحياته وحياة زملائه ، فقد كان يبرر حرب العصابات باعتبارها مقدمة للحرية ، كدعوة بالنسبة للأموات الأحياء . . لقد أصبح جيفارا فدائياً مثل كلاميلو توريس لا بسبب اليأس المفضى إلى التهور ، ولكنه كعاشق للجماهير ، كان يحلم بإنسان يولد من جديد فى تجربة التحرر . . وبهذا المعنى ، فقد كان أحد الرسل العظام إلى الصامتين فى العالم الثالث .

وباستشهادنا بجيفارا وشهادته كفدائى ، فإننا لا نقصد إلى القول بأن على كل الثوريين فى مناطق أخرى من العالم أن يكرروا نفس الشاهد . . فلشئ الضرورى هو أن يسعوا حقيقياً إلى تحقيق الاتصال مع الجماهير كما فعل جيفارا ، فالاتصال بالجماهير والذى لا يتفسر إلا لأولئك الذين يملكون رؤية ثورية بالمعنى المشار إليه فى هذا المقال - هو أحد الخصوصيات الجوهرية للعمل الثقافى من أجل الحرية . . ذلك أن الاتصال الحق يقتضى ضمناً التواصل بين الناس وقد توسطهم

العالم .. والممارسة فى إطار التواصل هى وحدها التى تجعل التوعية مشروعاً قابلاً للحياة .. وتعتبر التوعية مشروعاً مشتركاً من حيث أنها تحدث للإنسان من بين الناس ، وهم أناس يوحدتهم علمهم وتأملهم لذلك العلم وكذلك للعالم .. وهكذا يحقق الناس مجتمعون حالة الوضوح المدرك والمميز الذى يسميه جولامان أقصى حد من الوعى الممكن يتجاوز « الوعى الواقعى » .

التوعية أكثر من مجرد الإحساس بالوعى . وفى الوقت الذى تقتضى فيه التوعية ضمناً التغلب على الوعى الزائف أى التغلب على حالة الوعى شبه اللازم أو الانتقالى الساذج فإنه يقتضى ضمناً كذلك الإقحام النقدى للشخص الذى تمت توعيته فى واقع مجرد من الأساطير .. ولهذا السبب كانت التوعية برنامجاً لا يمكن تحقيقه بالنسبة لليمين .. فاليمين بحكم طبيعته غير قادر على أن يكون ثورياً ومن ثم لا يستطيع أن يطور شكلاً من العمل الثقافى من شأنه أن يحقق التوعية .

ليس بالإمكان توعية الجماهير دون الإدانة والرفض الجذريين لكل البنى التى تسلب الإنسان آدميته ، ودون أن يصاحب ذلك الإعلان عن واقع جديد تخلقه الجماهير .. فاليمين لا يستطيع أن يكشف عن نفسه كما لا يمكنه أن يعرى السبل التى تتيح للجماهير أن تكشفه بقدر ما لا يرغب فى أن يكشف .. وبازدياد وضوح الوعى الجماهيرى ، يزداد وعى اليمين ، ولو أن هذا الشكل من التوعية لا يمكنه أن يتحول بنفسه إلى ممارسة تميل إلى توعية الجماهير .. إذ لا يمكن أن

تكون هناك توعية دون رفض البنى الظالمة ، وهو أمر لا يمكن أن نتوقعه من اليمين . . كما لا يمكن أن تكون هناك توعية جماهيرية من أجل التسلط . . فاليمين يخترع أشكالاً جديدة من العمل الثقافي بهدف التسلط وحسب .

وهكذا نجد أن هذين الشكليين من الثقافة متنافرين وحيث يتميز العمل الثقافي من أجل الحرية بالحوار ، وحيث أن أهم أهدافه هو توعية الجماهير نحو مواقع متقدمة كان العمل الثقافي من أجل التسلط يعارض الحوار ويعمل على ترويض الجماهير . . فالأول يطرح المشاكل في الوقت الذي يطرح فيه الثاني الشعارات . . ولما كان العمل الثقافي من أجل الحرية ملتزماً بإنفاضة اللثام عن الواقع ، أى يفضح الخرافات والأيديولوجيات الحكومية فلا بد أن يفصل الأيديولوجيات عن العلم . . ويصر الأستاذ Althusier فى كتابه Paraleer El Capital على ضرورة هذا الفصل . . فالعمل الثقافي من أجل الحرية لا يمكن أن يكتفى بما يسميه بغموض الأيديولوجيا ولا أن يقبل بالإدانة الأخلاقية البسيطة للأساطير والأخطاء بل يجب أن يأخذ على عاتقه النقد العقلانى والدقيق جداً للأيديولوجيا السلطوية .

إن الدور الأساسى للملتزمين بالعمل الثقافى من أجل التوعية ليس صنع الفكرة المحررة بالمعنى الضيق للكلمة ، بل دعوة الجماهير لإدراك حقيقة واقعها الصامت والمستعبد من طرف الحكام بعقلها وحده . .

وتمشياً مع هذه الروح فى المعرفة ، لا يمكن أن تكون

المعرفة العلمية تلك المعرفة التي لا تتعدى النقل ، ذلك أنها ستصبح في حد ذاتها أسطورة أيديولوجية ، حتى لو نقلت بهدف تحرير الإنسان .. يمكن حسم التناقض بين البنية والممارسة لصالح الممارسة .. ذلك أن نقاط الانطلاق الحقيقية الوحيدة في المعرفة العلمية للواقع هي العلاقات الجدلية بين الإنسان والألم ، والفهم النقدي لكيفية نشوء وتطور هذه العلاقات وكيف تكيف هذه العلاقات بدورها إدراك الإنسان للواقع الملموس ..

إن الذين يستخدمون العمل الثقافي كاستراتيجية لاستمرار تسلطهم على الجماهير لا خيار لديهم غير تلقين الجماهير بنسخة أسطورية غامضة عن الواقع .. وبذلك يُخضع اليمين العلم والتكنولوجيا لأيديولوجيته الخاصة ويستخدمها لنشر المعلومات والقوانين في محاولة لتكييف الجماهير للواقع الذي تعرفه وسائل الاتصال على أنه مناسب وبالمقابل فالعلم بالنسبة للذين يأخذون على عاتقهم العمل الثقافي من أجل الحرية ، يعتبر الوسيلة التي لا غنى عنها لإدانة الخرافات التي يخلقها اليمين ، والفلسفة هي منبت الإعلان عن الواقع الجديد .. ويوفر العلم والفلسفة معاً أسس العمل من أجل التوعية .. والعمل الثقافي من أجل التوعية دائماً مشروعاً ثورياً وهذا هو السبب في أنه يحتاج إلى الفلسفة ، والتي بدونها ، بدلاً من إدانة الواقع والإعلان عن المستقبل يقع في غموض المعرفة الأيديولوجية .

إن الطبيعة الثورية للعمل الثقافي من أجل الحرية هي ما

يميزها ، فوق كل شيء ، عن العمل الثقافى من أجل الهيمنة .. فالعمل الثقافى من أجل الهيمنة القائم على الأساطير ، لا يستطيع أن يطرح المشاكل المتعلقة بالواقع أمام الجماهير ، ولا أن يوجهها نحو الكشف عن الواقع ، حيث أن كلا من هذين المشروعين يقتضى ضمناً الإدانة والإعلان .. وعلى العكس ، فعند منكلة وتوعية العمل الثقافى من أجل الحرية ، يكون الإعلان عن واقع جديد وسيعد المشروع التاريخى الجديد المقترح ليحققه الإنسان ..

وفى مواجهة حالة الوعى شبه اللازم أو الساذج بين الجماهير ، نتصور التوعية وتشمل تحقيق الوعى النقدى أو الحد الأقصى من الوعى الممكن ولا يمكن لهذا الهدف أن ينتهى عندما يصبح الإعلان ملموساً .. على العكس عندما يصبح الإعلان واقعاً ملموساً ، تزداد الحاجة إلى الوعى النقدى بين الجماهير ، أفقياً وعمودياً .. وهكذا فالعمل الثقافى من أجل الحرية ، والذي يميز الحركة التى ناضلت من أجل ما تم الإعلان عنه ، يجب عنئذ أن تحول نفسها إلى ثورة ثقافية مستمرة ..

وقبل المضى قدماً للخوض بشكل موسع فى لحظات العمل الثقافى والثورة الثقافية المتميزة والمترابطة بالضرورة ، دعونا نلخص ملاحظتنا السابقة فيما يتعلق بمستويات الوعى .. لقد تم تأسيس علاقة واضحة بين العمل الثقافى من أجل الحرية ، والتوعية باعتبارها مشروعها الأساسى ، وتجاوز الوعى

النقدى للوعى شبه اللازم وحالة الوعى الساذج - الانتقالى ..
ولا يتحقق الوعى النقدى عن طريق الجهد الفكرى وحده ، بل
عن طريق الممارسة ، عن طريق الاتحاد الحقيقى بين العمل
والتأمل .. ذلك أنه لا يمكن أن ننكر على الجماهير مثل هذا
العمل التأملى .. ولو كان ذلك ممكناً ، لأصبحت الجماهير
مجرد مخالب فعالة فى أيدى جماعة تحتفظ لنفسها بحق صنع
القرار .. ولا يمكن لليسار الحقيقى إلا أن يحث على التغلب
على الوعى المزيف لدى الجماهير على كافة المستويات التى
يوجد عليها ، تماماً كما أن اليمين عاجز على أن يفعل ذلك ..
ولكى يحافظ اليمين على سلطته ، يحتاج إلى صفوة تفكر له
وتساعده فى تحقيق مشاريعه .. أما الجماعة الثورية فإنها تحتاج
إلى الجماهير لتحويل المشروع الثورى إلى واقع ولكنها
الجماهير التى تزداد وعليها النقد أكثر فأكثر ..

وبعد أن يذشن الواقع الثورى ، تظل التوعية أمر لا غنى
عنه .. فهى أداة لتبديد الأساطير الثقافية التى تحتفظ بها
الجماهير رغم الواقع الجديد ، وبالإضافة إلى ذلك فالتوعية قوة
رادعة للبيروقراطية التى تهدد بإخففات الرؤية الثورية والهيمنة
على الجماهير بإسم حريتها ذاتها . وأخيراً تشكل التوعية دفاعاً
ضد تهديد آخر ، ألا و هو إمكانية أسطرة التكنولوجيا التى
يتطلبها المجتمع الجديد لتحويل بناء التحتية المتخلفة (أنظر
كتابنا تعليم المقهورين) .

هناك اتجاهان ممكنان أمام الوعى الجماهيرى الانتقالى ..

أما الأول فهو التطور من حالة الوعي الساذج إلى مستوى الوعي النقدي - أى ما يسميه جولدمان « الحد الأقصى من الوعي الممكن » وهو الوعي الثورى من أجل الحرية .

أما الثانى فهو تشويه حالة الوعي الانتقالى إلى شكلها الباثولوجى (المرضى) أى مرحلة الوعي المتطرف أو اللاعقلانى كما يصفها هاريل برىكال فى كتابه « الإنسان ضد المجتمع - الجماهير » وهو الوعي الذى تفرضه الصفوة المتسلطة من أجل تكريس ثقافة الصمت .

وتنشأة الجماهرة - أن ظاهرة المجتمعات الجماهيرية - فى الاتجاه الأول للوعي وهو الوعي الإيجابى الذى يرتبط ذهنياً بالمجتمع الجماهيرى ومعود الجماهير فى العالمية التاريخية بمزاعمها ومطالبها مما يجعلها حاضرة فى العملية التاريخية مهما كان وعيها ناقصاً - وهى ظاهرة تصاحب تصدع المجتمعات المغلقة تحت تأثير التغيرات الأولية فى البنية التحتية للمجتمع . . وعلى كل فالمجتمع الجماهيرى يحدث فى مرحلة تالية للوعي . . ويظهر فى المجتمعات البسيطة والمعقدة والمتطورة تكنولوجياً ولكى تؤدي هذه المجتمعات وظيفتها جماهيرياً ، تتطلب خاصيات تصبح تخصصات . . وباعتبار الخاصيات متميزة عن التخصصات ، نجد أن التخصصات تضيق نطاق المعرفة بكيافة تجعل ما يسمى بالاختصاصيين يصبحون عموماً عاجزين عن التفكير . . ولأنهم فقدوا الرؤية للكل الذى لا يشكل خصوصيتهم ، سوى بعد واحد فقط منه

فإنهم يعجزون حتى عن التفكير السليم فى مجالات تخصصهم .

بذلك تصبح طرق التفكير فى المجتمعات الجماهيرية حرة تماماً كطرق اللباس والذوق فى الأكل . . ويبدأ الإنسان فى التفكير والتصرف وفقاً لوعى الحرية التى اكتسبها عن طريق عملية الوعى الثورى من أجل الحرية والاستجابة للعلاقات الجدلية مع العالم .

وفى المجتمعات الجماهيرية حيث كل شىء خلق عن طريق الوعى الثورى يكون السلوك إنسانياً محضاً ، ويجد الإنسان سبيله لأنه أصبح حراً ، وفى علاقة دائمة مع العالم - الإنسان .

وهكذا يتحرر الإنسان فى إدراك التكنولوجيا باعتبارها من أعظم التغييرات فى قدراته الإبداعية ، وتصبح فى ذلك نوعاً من القدسية الجديدة التى تخلق طائفة من الحريات من حولها ، وتصبح الكفاءة مرتبطة بقدرة الإنسان على التفكير والإبداع ولا تصبح تعنى تنفيذ الأوامر العلوية تحديداً وبدقة . .

وبذلك يكون واضحاً أن التطور التكنولوجى أحد اهتمامات المشروع الثورى وقد يكون من التبسيط بمكان أن نعزو مسؤولية نجاح المشروع الثورى إلى التكنولوجيا ذاتها . . إذ سيكون ذلك نوعاً آخر من العقلانية ألا وهو النظر إلى التكنولوجيا على أنها كيان خيّر فى خدمة الإنسان ويقف معه . . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة نقدية نجد أنها ليست أكثر أو أقل من أنها

مرحلة طبيعية للعملية الإبداعية التي شغلت الإنسان منذ اللحظة التي صنع فيها أولى معاداته وبدأ بتحويل العالم بهدف جعله أكثر إنسانية ..

وبالنظر إلى التكنولوجيا باعتبارها ليست ضرورية فحسب ، بل هي جزء من التطور الطبيعي للإنسان ، فإن السؤال الذى يواجه النوريين هو كيف يتجنبون انحرافات التكنولوجيا الأسطورية؟؟ . . تقنيات الإنسان ليست الجواب ، ذلك أنها فى نمط من أنماط التحليل النهائى طريقة أخرى لترويض وتغريب الإنسان من أجل المزيد من الإنتاجية ، ولهذا السبب ، وغيره من الأسباب التى شرحناها - بسطناها خلال هذا المقال ، فإننا نصر على العمل الثقافى من أجل الحرية . . وعلى كل فإننا لا نعزو للوعية قوة سحرية ليس من شأنها إلا أن نجعلها أسطورية . . فالتوعية ليست شيئاً سحرياً بالنسبة للثوريين ، بل هى بعد أساسى من عملهم التأملى . . ولو لم يكن للإنسان قوى واعية قادراً على الفعل والإدراك ، وقادراً على المعرفة والإبداع من جديد ، لو لم يكن واعياً بنفسه وبالعالم ، لما كان لفكرة «التوعية» أى معنى . . إن الثورات الحقيقية تقوم لكى تحرر الإنسان وتحديداً لأن الإنسان يستطيع أن يعرف أنه مضطهد ، وأن يعى الواقع المستبد الذى يوجد فيه . .

ولما كان وعى الإنسان يتكيف بالواقع أحياناً ، كما رأينا ، كانت التوعية بالدرجة الأولى مجهوداً من أجل تنوير الإنسان حول العقبات التى تمنعه من إدراك الواقع . . وفى هذا الدور

تحقق التوعية بتبديد الأساطير الثقافية التي تشوش وتربك وعى الجماهير وتجعلها كائنات غامضة .

ولما كان الإنسان كائناً تاريخياً ، غير كامل وواع بأنه غير كامل ، كانت الثورة بعداً إنسانياً طبيعياً ودائماً كالتربية تماماً . . ولا يذهب أحد إلى أن العملية التربوية تتوقف عند نقطة معينة ، أو أن الثورة يمكنها أن تتوقف عندما تصل إلى السلطة ، إلا ذوى العقلية الآلية المحضة . . ولكي تكون الثورة أصيلة فلا بد أن تكون حدثاً مستمراً . . وإلا توقفت عن أن تكون ثورة وتحولت إلى بيروقراطية متصلبة .

الثورة دائماً ثقافية ، سواء أكانت فى مرحلة إدانة ورفض المجتمع الاستبدادى والإعلان عن ظهور مجتمع عادل ، أم كانت فى مرحلة المجتمع الجديد الذى أنشأته الثورة . . ففى المجتمع الجديد ، تصبح العملية الثورية ثورة ثقافية . .

وأخيراً فلنوضح الأسباب التى دفعتنا إلى الحديث عن العمل الثقافى والثورة الثقافية باعتبارهما لحظتين متميزتين فى العملية الثورية . . ففى المقام الأول ، نجد أن العمل الثقافى من أجل الحرية يتم لمعارضة الصفوة السلطوية المسيطرة ، بينما تحدث الثورة الثقافية بانسجام مع النظام الثورى - ولو أن هذا لا يعنى أنها تابع للسلطة الثورية . . فالثورة الثقافية الشاملة تطرح الحرية كهدف لها . . وبالعكس فالعمل الثقافى إذا ما رعاه نظام مستبد يمكن أن يكون استراتيجية التسلط ، وفى هذه الحالة لا يمكن أبداً أن يصبح ثورة ثقافية . .

ويحدد الواقع الاستبدادي ذاته والصمت الذي تفرضه الصفوة السلطوية حدود الفعل الثقافي .. ذلك أن طبيعة الاستبداد ، تحدد التكنيكات والتي تختلف بالضرورة عن المستخدمة في الثورة الثقافية .. وفي حين يواجه العمل الثقافي من أجل الحرية الصمت باعتباره حقيقة خارجية ، وباعتباره واقعاً مغروساً تواجهه الثورة الثقافية باعتباره مجرد واقع مغروس .. ويشكل كل من العمل الثقافي والثورة الثقافية مجهوداً من أجل رفض وتدمير الثقافة المسيطرة ، ثقافياً ، حتى قبل أن تصبح الثقافة الجديدة الناجمة عن هذا الرفض والتدمير واقعاً .. وحتى الواقع الثقافي الجديد ذاته باستمرار عرضة للرفض لصالح تأكيد الإنسان المتزايد .. وعلى أي حال ففي الثورة الثقافية يحدث هنا الرفض مع ولادة ثقافة جديدة في رحم الثقافة القديمة ..

ويقضى كل من العمل الثقافي والثورة الثقافية ضمناً التفاعل والتواصل بين الثوريين والجماهير ، باعتبارهما ذوات فاعلة تحول الواقع .. وعلى كل ففي الثورة الثقافية يكون التفاعل والتواصل راسخاً وثابتاً لدرجة أن الثوريين والجماهير يصبحان كالجسد الواحد تضبطه عملية النقد الذاتي المستمرة .. ويقوم كل من العمل الثقافي والثورة الثقافية على المعرفة العملية للواقع ، ولكن في الثورة الثقافية لا يعود العلم في خدمة التسلط .. وفي نقطتين اثنتين ليس هناك تميز بين الثورة الثقافية والعمل الثقافي .. فكلاهما ملتزمان بالتوعية وتفسر صورة كلا منهما بجدلية « التحديد التضافري » .

لقد تحدثنا عن التحدى الذى تواجهه أمريكا اللاتينية فى هذه المرحلة من التحول التاريخى . . ولا نعتقد أن مناطق أخرى من العالم الثالث تشكل استثناء لما وصفناه ، ولو أن لكل منهما فروقهما الدقيقة الخاصة . . وإذا كانت السبل التى يتبعونها تؤدى إلى التحرر ، فلا نستطيع أن نتجنب العمل الثقافى من أجل التوعية ولا يمكن للجماهير الصاعدة والغير نقدية أن تحقق الحد الأقصى من الوعى الممكن ولا أن تحقق الانتقال من الانغماس فى شبه الانتقالية إلى الصعود الكامل إلا من خلال مثل هذه العملية وإذا كنا نؤمن بالإنسان ، فلا يمكن أن نكتفى بالقول بأنه بشر دون أن نفعل شيئاً ملموساً يمكنه من أن يوجد كإنسان .

الهوامش

المقدمة

1- تعاني هذه المجتمعات الموجهة - المديرية بدورها عادة ، وكما هو طبيعى ، من مرض معاكس : فهي مقتنعة بأن فكرها معصوم من الخطأ ، ولهذا السبب فمن الطبيعى أن تحذو المجتمعات التابعة حذوها بورع وعندما نقول هذا فنحن إنما نؤكد حقيقة واضحة ففى العلاقة بين المدن الكبرى والمجتمعات التابعة ، تقابل غربة المجتمعات التابعة السلوك المتعالى للأول ، أى المجتمع الموجه (وهذا يعنى ضمناً ما يسره **GUERRIERO RAMOS** بالقدوة) .

وعلى كل حال ، ففى أى الحالتين ، يجب أن يقلع المرء عن إطلاق هذا الحكم ، ذلك أنه كما أن هناك من بين المغتربين من يفكر بشكل غير مغرب ، هناك أناس غير متكبرين أو متعالين فى المجتمعات الكبيرة الموجهة وفى كلتى الحالتين ، لأسباب مختلفة ، يشيرون على معايير كل منهما ..

2- تحدث عملية التحول هذه بطريقتها الخاصة في المجتمعات السيدية مما يعطى مظهراً بالاستتزاز الذى لا يتزعزع .. وهناك أيضاً ترى ظهور أكثر القطاعات النعوية كآبة .. والتي لم توجد من قبل على هيئة مشاكل ، مختبئة كذا كانت فى ترف مجتمعتها .. وعندما تصعد هذه الجماعات تؤكد -حضورها عن طريق البنى السلطوية ، سواء بتنظيم نفسها لتشهد على حضورها الذى لا مفر منه فى العملية التاريخية ، أو بواسطة أكثر أشكال الضغط السياسى عدوانية .. وبالتدرج تشارك المجموعات الطلابية والتي ركزت لفترة طويلة على المطالب الأكاديمية المجردة ، فى تمليل المجموعات المضطهدة .. ويحدث نفس الشيء للتقدميين الأكثر تقدمة من بين المثقفين .. وهكذا فخطط المجتمعات الموجهة كلها موضع تساؤل ..

صحيح أنه عند الحديث على عملية التغيير الاجتماعى فى هذه المجتمعات على المرء أن يأخذ فى اعتباره قدرتها الأوسع على استيعاب المعارضة وذلك بفضل تقدمها التكنولوجى المتطور .. وقد لفت ماركوس MARCUSE الانتباه مراراً إلى أن هذه القوة التكنولوجية قادرة على تحويل العديد من حركات الاحتجاج هذه إلى مجرد تظاهرات فولكلورية وعلى كل ، فهذه النقطة ليست جزءاً من موضوعنا .. ولا يمكن معالجتها بشكل كاف فى هامش بسيط ..

3- فيما يتعلق « بثقافة الصمت » أنظر مقالنا « الحرية الثقافية فى أمريكا اللاتينية » ..

4- حتى التحليل المتعجل والسطحي للسياسة فى أمريكا اللاتينية يؤكد هذا التوكيد .. ومع ذلك يجب ألا ينظر إلى الانقلابات المتعاقبة على أنها دليل على عدم قدر شعوب أمريكا اللاتينية على السيطرة على مقدراتها .. على العكس ، فالانقلابات ، والعنف الذى يحاول به

قادتها الإبقاء على أنفسهم فى السلطة هى رد فعل الأوليغاركيات ،
التي تسيطر عليها المدن الكبرى تجاه ضغط الجماهير التي تحاول أن
تكون جماهيراً . .

الفصل الأول

1- يعترف المؤلف شاكرًا LORETTA SOLVER التي قامت بمساهمتها
بترجمة هذا المقال ، وكذلك JOAO DE VEIGA COUTIMHO و
ROBERT RIORDAN اللذين ساعدا في إعداد المخطوط . .

2- فى اللغات البرتغالية والإسبانية تتركب الكلمات من مقاطعها . . وهكذا
فإن كل كلمة ذات مقطع واحد هى من الناحية الفنية توليدية بمعنى أنه
يمكن تركيب كلمات أخرى من مقاطعها المفككة وعلى كل حال ،
فقد تكون كل كلمة توليدية بحق ، يجب أن تتوفر بعض الشروط التي
سنناقشها فى جزء لاحق من هذه المقالة . . (على المستوى
الفونولوجى لا تنطبق عبارة كلمة توليدية بالضبط إلا فيما يختص
بالمنهج القرائى ذى التوجه نحو المقاطع الصوتية ، بينما التطبيق
الموضوعى عام . . أنظر SYLVIA ASLITON WERNER فى كتابها
TEACHER حيث تعالج فكرة الكلمات التوليدية على المستوى
الموضوعى بشكل مختلف .

3- يطرح المفهوم الهضمى للمعرفة « بالقراءات الموجهة » بالفصول
الدراسية تقتصر على المحاضرات ، باستعمال الحوارات المستظهرة
فى تعليم اللغة ، والملاحظات البيولوجرافية التي تشير إلى الفصول
الواجب قراءتها وحسب بل كذلك إلى أى الأسطر والكلمات وبطرق
تقييم الطالب فى التعليم . .

4- من بين هذه الكتب الابتدائية هناك استثناءان جديران بالذكر .

1- في البرازيل طور فريق من أخصائي حركة التعليم الأساسي كتاب VIVER A LUTAR والذي رعاه وموله مؤتمر الأساقفة القومى . . (وقد وضع هذا الكتاب موضع خلاف فى رأى بعد أن منع CARLOS LACEDRA حاكم GUNABRA عام 1963 م تداوله باعتباره تخريباً) .

2- فى التشيلى مجموعة ESPIGA بالرغم من بعض القصور البسيطة وقد نظمته DE PLANES EXTRDINARIOSA DE EDUCACION DE ADULROS JAFALURA . .

5- لما لم تكن هذه الكتب الابتدائية فى متناول الكاتب وقت كتابة هذا المقال ، وكان من ثم عرضة لتسجيل العبارات بشكل غير دقيق والخلط بين مؤلفى هذه الكتب، فقد رأى من الأفضل عدم تحديد أسماء المؤلفين أو عناوين الكتب . .

6- لن يكون للعبارة الإنجليزية أى معنى هنا ، كما هو الأمر بالنسبة للبرتغالية ، حيث أن الأمر يتعلق بالتأكيد على الحرف الصامت (D) .

7- ربما أضاف المؤلف هنا « . . وفيما لو حدث هذا ، استعمل قليلاً من الميركوروم » .

8- الكلمة البرتغالية المترجمة إلى الإنجليزية على أنها الرجل الهامشى هى MARGINAL MAN MARGINADO ولهذا معنى سلبياً : أى الذى جعل على الهامش أو أبعد خارج المجتمع ، إضافة إلى معنى حالة وجود حافة المجتمع . .

(المترجم)

9- كما يقول سارتر « هناك دريقتان للوقوع فى المثالية : تتكون الأولى

من تحليل الواقع REAL في الذاتية ، وتكون الثانية من نكران أى ذاتية
لصالح الموضوعية « من كتاب البحث عن منبع SEARCH FOR
METHOD » .

10 - تشير عبارة الرمز/ التفسير أما إلى التصوير، أو الصورة نفسها لجانب
مهم من الواقع الملموس للمتعلم (مثلاً الحياة فى الأكواخ) . . وهكذا
نصبح هدفاً للحوار بين المدرس - الطالب والإطار لتقديم الكلمة
التوليدية . .

11 - تشير عبارة فك الرمز DECODIFICATION إلى عملية الوصف والتفسير
سواء فى مجال الكلمات المقروءة/ المطبوعة، أو الصور أو أى
ترميزات CODIFICATIONS أخرى . . ومن هذا المنطلق كانت عبارتى
DECODING DECODIFICATION تختلفان عن عملية
التفكيك أو التعرف على علكلمات WORD-RECOGNITION .

12 - فيما يتعلق بالوعى المضطهد أو المقهور أنظر كتاب فرانس قانون
«معذبو الأرض» ، وكتاب البرت ميمى «المستعمرون والمستعمرون»
وكتابى «بيداغوجية المضطهدين» . . .

13 - لاحظنا فى البرازيل بل وأمريكا الناطقة بالإسبانية ، وخاصة
التشلى ، أنه لم تكن هناك حاجة لأكثر من سبع عشرة كلمة لتعليم
الكبار قراءة وكتابة اللغات المقاطعية كالبرتغالية والإسبانية . .

14 - بشأن البعد الطوباوى للإدانة والإعلان ، أنظر كتاب A MARXIST
HUMANISM LESZEK KOLAKOESK : TOWARD نحو الإنسانية
الماركسية .

15 - لا يحتاج اليمين باعتباره قوة محافظة إلى طوباوية ، ذلك أن جوهر
اليمين هو ترسيخ الظروف القائمة بالفعل - حقيقة طوباوية - أو الرغبة

فى العودة إلى حالة كنت ذات حقيقة واقعة .. يسعى اليمين إلى
إضفاء المثالية على الظروف الفعلية ، لا أن يغيرها فما يحتاج إليه
هو التزيف لا الطوباوية ، كلاكوسكى KALAKOWSKI .

16 - « لقد لاحظنا بأن دراسة الجانب الإبداعى لاستعمال اللغة ينمى
الافتراض بأن العمليات اللغوية والذهنية تكاد تكون متطابقة ، توفر
اللغة الوسائل الأولية للتيسيع الحر للفكر والإحساس وكذلك من أجل
أن يؤدى الخيال المبدع وظيفته » .

17 - بعد إعادة توزيع الأراضى فى الإصلاح الزراعى التشيلى ، أصبح
الأجراء من الفلاحين الذين كانوا يعملون بالأبعاديات الكبيرة أصبحوا
مستوطنين خلال فترة ثلاث سنوات حيث يتلقون مساعدات من
الحكومة عن طريق مؤسسة الإصلاح الزراعى .. تسبق فترة
المستوطنات فترة تخصيص الأراضى للفلاحين .. وتعرض هذه
السياسة للتغير الآن .. حيث يتم إلغاء مرحلة استيطان الأراضى
لصالح التوزيع المباشر للأراضى على الفلاحين .. ومع ذلك
فستستمر مؤسسة الإصلاح الزراعى فى مساعدة الفلاحين ..

18 - يشير DARIO SALES هنا إلى واحد من أفضل برامج تعليم الكبار
التي تنظمها مؤسسة الإصلاح الزراعى فى تشيلى بالتعاون الوثيق مع
وزارة التعليم (ومعهد لإصلاح الزراعى والتدريب والأبحاث ..)
يتلقى خمسون فلاحاً معاً للدراسة والإقامة لمدة شهر .. وتركز
الكورسات على مناقشة الأوضاع المحلية والإقليمية والوطنية ..

19 - لا يدخل تحليل أهداف ومناهج البحث فى الموضوعات التوليدية فى
مجال هذه المقالة ، ولكن تمت معالجته فى كتابنا تعليم
المقهورين .

الفصل الثانى

1- هذا هو القسم الثالث من مقال باولو فريرى « التوعية : عمل ثقافى من أجل الحرية » ، وقد ظهر القسمان الأولان فى مجلة هارفارد للدراسات التربوية عدد مايو 1970 م . . HARVARD EDUCATIONAL REVIEW وقد ترجمته LORETTA SLOVER . . 1970 م حقوق النشر لصالح « مركز دراسات التنمية والتغير الاجتماعى » ، 1430 نهج ماساتشوستس ، كامبردج ، ماساتشوستس 2138 . .

2- تشير التوعية إلى العملية التى يحقق بها الإنسان كذات عارفة وليس كمتلق واع متنام من الواقع الاجتماعى - الثقافى الذى يشكل حياته ومقدراته على تحويل ذلك الواقع . . أنظر القسم الأول . .

(المحرر)

3- بشأن التمييز بين علاقات الإنسان واتصالات الحيوان ، أنظر باولو فريرى EDUCACAO COMO PRATICA DA LIBERACAO .

4- يعنى السمو فى هذا الإطار قدرة الوعى الإنسانى على تجاوز حدود الصفوة الموضوعية . . وبدون هذه العهدة السامية يكون الوعى بما هو موجود فيما وراء الحدود مستحيلاً . . مثلاً أنا أعى كيف أن المنضدة التى أكتب عليها تحدنى لمجرد أنى أستطيع أن أتجاوز وأن أركز انتباهى على حدودها .

5- « الإنسان ، حيوان عاقل » أرسطو . .

ولنقل اليوم أكثر تحديداً « الإنسان حيوان مفكر/متأمل » ، مؤكدين على الخصائص التطورية لخاصية تدل على الانتقال من وعى ما زال قائماً إلى وعى مركز على الكفاية ليكون قادراً على التزامن مع

ذاته . . فالإنسان ليس « كائناً يعرف بل كائن يعرف أنه يعرف فإذا
امتلكنا وعياً يرقى إلى الذوة 2 » . . فهل ندرك بما فيه الكفاية الطبيعة
الجوهرية للفرق ؟ . . عر. كتاب PIERRE TEILHARD ظهور الإنسان
. THE APPEARANCE OF MAN

6- يرفض ماركس تحويل الوقع بنفسه فى إحدى أطروحاته حول فويرباخ
THESE ON FEURBACH أنظر كارل ماركس « أعمال مختارة فى
الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » . .

7- فى نقاش لعلاقات الإنسان/ العالم خلال إحدى « الحلقات الثقافية »
أكد فلاح تشيلي « الآن أستطيع أن أرى أنه ليس هناك عالم بدون
الإنسان » . . وعندما سأل المربي ، لفترض أن كل الناس ماتوا ،
ولكن ظلت هناك أشجار . وحيوانات ، وطيور ، وأنهار ، ونجوم ، ألن
يكون هذا هو العالم ؟ » . . أجاب الفلاح « لا » ، فلن يكون هنا أحد
ليقول ، هذا هو العالم » .

8- نشير هنا إلى السلوكية كما درسها JOHN BELOFF فى كتابه « وجود
العقل » THE EXISTENCE OF MIND .

9- يقول ORLEGA Y GASSET فى أحد أعماله أن « النمر لا ينفى
التمرة DE FIGERIZE عن نسبه » . .

10- هذا مناسب لعلاقات الإنسان الاجتماعية، والتي تقضى ضمناً
علاقاتها مع العالم . . وهذا هو السبب فى أن الفصل التقليدى بين
العمل اليدوى والعمل الفكرى ليس إلا أسطورة . . فكل عمل
يستدعى حضور كل الإنسان كوحدة لا تقبل التجزئة . . فعمل الصانع
اليدوى فى المصنع لا يمكن أن يقسم إلى عمل يدوى وفكرى تماماً
مثل عملنا عندما نكتب مقالة . . والتمييز الوحيد الذى يمكن أن يقوم
به بين هذين الشكلين من العمل هو سيطرة نوع الجهد الذى يتطلب
العمل: جهد عضلى - نصبي أم فكرى . . فيما يتعلق بهذه النقطة

أنظر ANTONIO GRAMSCe «الثقافة والأدب» CULTURA Y LITERACE.

11 - من خطاب JOSE FOIRI مساعدا للمؤلف ضمن فريق التشبلى فى معهد الإصلاح الزراعى والتدريب والأبحاث ICIRA وهو من أفضل المعاهد من نوعه فى العالم الثالث . .

12 - من المجتمع أن تلاحظ كيف يحدث هذا مع الكنائس . . ففكرة «الأراضى التبشيرية» تنبع أصلاً من الولايات الأم فى المستعمرات . . إذ لكى توجد أراضى تبشيرية ، يجب أن يكون هناك آخر بعددها على أنها كذلك . . وهنا تزامن وتوافق بين الأمم التى تبعث بالمبشرين (التبشيرية) والولايات الأم فى المستعمرات كما هو موجود بين الأراضى التبشيرية والعالم الثالث . . ويبدو لنا على العكس ، أن كل الأراضى تشكل أراضى تبشيرية من المنظور المسيحى . .

13 - بشأن «المجتمعات المغلقة» أنظر HENRI BERGSON مصدرى الأخلاق والدين THE TWO SOURCES OF MORALITY AND RELIGION وكتاب KOR POPPER المجتمع المفتوح وأعداؤه . .

14 - لا نزال نجد هنا النوع/الضرب MODE من الوعى سائداً فى المناطق الريفية . . بأمريكا اللاتينية حيث امتلاك الأبعاديات الواسعة هو القاعدة . . وتشكل المناطق الريفية «مجتمعات مغلقة» تحتفظ « بثقافة الصمت » دون أى مساس بها . .

15 - من الضرورى تبديد تحديث البنى المغلقة مصادر الطقوس السحرية التى تشكل جزءاً لا يتجزأ من البنى . . فإن لم نفعل ، ففى الوقت الذى يمكن أن يتخلص التحديث من ظاهرة الطقوس السحرية فى حد ذاتها فسيمضى التحديث لإضفاء الأساطير على التكنولوجيا . .

وستحل أسطورة التكنولوجيا محل الكيانات السحرية التي كانت في السابق تفسر المواقف المبعدة وعلاوة على ذلك قد ينظر إلى أسطورة التكنولوجيا ، لا باعتبارها بديلاً عن القوى القديمة ، والتي تظل موجودة في هذه الحالة ، ولكن باعتباره شيئاً يفوقها حتى هي ذاتها . . وهكذا تطرح التكنولوجيا على أنها القوة تفوق البنى ، ولا يمكن أن تصل إليها إلا حفنة قليلة متميزة . .

16 - لقد سبب إلغاء الرق في البرازيل انكاس رأس المال في الصناعات الأولية وحفز الموجات لأولى من الهجرة الألمانية ، والإيطالية ، واليابانية إلى الولايات الوسطى الجنوبية والجنوبية في البرازيل .

17 - بالرغم من أننا لم نقم بدراسة دقيقة لظهور الوعي الأسود في الولايات المتحدة ، فمن المعزى أن نقول بأن هناك اختلافات بين الأجيال الشابة والقديمة وخاصة في المناطق الجنوبية ، والتي لا يمكن تفسيرها بالمعايير السيكولوجية ، بل بالفهم الجدلي لعملية الوعي الصاعد فالجيل الشاب أقل تأثراً بالقدرية من الجيل القديم ، ومنطقياً يجب أن يتخذ مواقف تختلف كيفياً عن تلك التي يتخذها الجيل القديم ، ليس فيما يتعلق بالصمت السلبي ، ولكن بالنسبة للطرق التي تستخدمها حركاتهم الاحتجاجية . .

18 - أنظر الدراسة الممتازة عن «دور الشعر في الثورة الموزمبيقية» مجلة إفريقيا اليوم AFRICA TODAY .

19 - في أمريكا اللاتينية تمكنت الثورة المكسيكية ، البوليفية والكوبية من فتح بنى المجتمعات المغلقة في المناطق الريفية . . ولكن كوبا وحدها التي استطاعت أن تجعل هذا التغير دائماً . . أما المكسيك فقد أجمت ثورتها ، وهزمت الحركة الثورية البوليفية . . ومع ذلك فإن وجود الفلاحين في الحياة الاجتماعية في كل من المكسيك وبوليفيا حقيقة غير قابلة للشك كنتيجة لتلك البداية الأولية . .

20 - يشير FRA.NCISCO WEEFORT في مقدمته لكتابنا التربية ك ممارسة للتحرر EDUCOCAC COMO PRATICA DA LIBERDADE إلى أن الغموض الذي هو السمة الرئيسية للشعبية و باعتبار الأستاذ WEEFORT أستاذاً لعلم الاجتماع فهو من أفضل محللى الشعبية فى البرازيل اليوم . . وقد نشر مركز دراسات التنمية والتغير الاجتماعى ، كمبرج ، ماساتشوستس ، مؤخراً ترجمة لمقدمته وقد أنجزتها LORETTA SOLVER للتداول المحدود . .

21 - يستخدم ALTHUSESR نفس ظاهرة لجوء الجماهير إلى الصمت ، ليفسر كيف كان فى إمكان الشعب الروسى أن يتحمل جرائم القمع السئالينى .

22 - فيما يتعلق بالراديكالية ، ونقيضها ، الطائفية ، أنظر كتابنا تعليم المقهورين .

23 - بشأن النزوع إلى الحياة والنزوع إلى الموت أنظر كتاب أريك فروم ERICH FROMM «قلب الإنسان» THE GEART OF MAN .

24 - ناقشت هذين الشكليين من العمل الثقافى فى كتابى تعليم المقهورين .

25 - لا بد لنا أن نرفض الأسطورة التى تذهب إلى أن أى نقد للبيروقراطيات النزاعة إلى الموت الذى يتلع الإعلان الثورى يقوى اليمين . . فالعكس صحيح . . فالصمت وليس النقد فى هذه الحالة هو الذى يرفض الإعلان (الثورى) ويشكل تنازلاً لليمين . .

26 - فى محادثة أخيرة معى لأخصائى التحليل النفسى مساعد الدكتور FROMM قال لى أن أبحاث توحى بعلاقة بين إضفاء الأساطير حول التكنولوجيا والاتجاهات التيكروقبلية (الميل إلى الموت) . .

27- « إن المهنيين الذين يسعون لتحقيق ذواتهم عن طريق السلوك الإبداعي والمستقبل دون مراعاة للأهداف المحددة والاحتياجات والقنوات بكل جهة من جهاتهم لا مكان لهم في المؤسسات الكبيرة أو الوكالات الحكومية كما هو الأمر بالنسبة للجنود الذين يعانون من الغثيان في الجيش .. فالتنظيم الاجتماعي للتكنولوجيا الجديدة ، بنكرانه المنظم على عمدة الشعب التجارب التي تشابه تجارب إداراته العليا ، يساهم بشكل كبير في نمو اللاعقلانية الاجتماعية في مجتمعنا». عن JOHN MACDERMOTT .

28- بالرغم من أنه يمكن تطبيق هذه الأحكام حول الثورة الثقافية على تحليل للثورة الثقافية في الصين وسواها ، فليس هذا في نيتنا ، فنحن نقصر دراستنا على مجمل العلاقة بين الثورة الثقافية ، والعمل الثقافي الذي نقترحه ..

ملحق

فى هذا الملحق كيف يتم تفكيك كلمة توليدية من لغة مقاطعية، وكيفية تكوين كلمات جديدة منها..

● الكلمة التوليدية GENERATIVE WORD .

يتم اختيار كلمة ذات ثلاثة مقاطع من « العالم اللغوى » خلال البحث الذى يسبق دورة محو الأمية .. مثلاً (FAVELA) (SLUM) وتعنى حى فقير ..

● الترميز CODIFICATION .

تصوير جانب مهم من الموقف الوجودى الإنسانى فى حى الأكواخ.. ويتم إدخال الكلمة التوليدية فى هذا الترميز.. ويؤدى الترميز وظيفة الموضوع القابل للمعرفة KNOWABLE

OBJECT الذى يتوسط الذات العارفة KNOWING SUBJECT
المربى والمتعلمين - فى عملية المعرفة التى يحققونها فى
الحوار .

● المجال الحقيقى أو الملموس REAL OR CON-
CRETE CONTEXT

واقع الحى الفقير كإطار للوقائع الموضوعية التى تهم
ساكنى الأكواخ SLUMS مباشرة . . .

● المجال النظرى THEORITICAL CONTEXT

حلقة نقاش (حلقة ثقافية CERCULO DE CULTORA)
حيث يشغل المربون والمتعلمون - عن طريق ترميز واقع
الأكواخ الموضوعى - فى حوار حول أسباب REASONS واقع
الأكواخ . . وكلما كانت عملية المعرفة أعمق كشف المتعلمون
الواقع على حقيقته ، مستبعدين الأساطير التى تحيط به . .
وتمكن هذه العملية المعرفية المتعلمين من تحويل تفسيرهم
للواقع من مجرد رأى إلى معرفة أكثر نقدية . .

وهكذا ، باعتبارها بيئة النظرية ، فحلقة النقاش هى
البيئة المتخصصة حيث ت طرح الحقائق التى نجدها فى البيئة
الملموسة ، فى الأكواخ ، لتحليل النقدى .

إن الترميز الذى يصور هذه الوقائع ، هو الموضوع القابل
للمعرفة KNOWABLE OBJECT إن فرز الرموز DECODI-
FICATION أى تفكيك BREAKGDOWN الكل المرمز ثم

إعادة تجميعه (أى إعادته كلاً) ، هو العملية التى تسعى بها
الذوات العارفة KNOWING SUBJECT إلى المعرفة ولا غنى
عن العلاقة الحوارية فى هذه العملية . .

● مراحل فرز الرموز STAGES OF DECODIFICATIC

- 1- تبدأ الذوات العارفة فى عملية تفكيك الكل المرمز . . وهذا
يمكنهم من التوغل PERETVDS فى الكل من حيث
العلاقات بين أجزائه ، والنسبة حتى ذلك الحين لم يدركها
المشاهدون . .
- 2- وبعد التحليل الشامل للموقف الوجودى للأكواخ ، تتأسس
العلاقة الدلالية بين الكلمة التوليدية ومدلولها . .
- 3- وبعد أن ترى الكلمة فى الموقف ، يتم عرض شريحة
SLIDE أخرى حيث تظهر الكلمات فقط ، دون صورة
الموقف FAVELA .
- 4- تفصل الكلمة التوليدية فوراً إلى مقاطعها FA VE LA .
- 5- تعرض أسرة FAMILY المقطع الأول FA , FE , FI , FO
وعندما يواجه الطلاب هذه الأسرة المقاطعية ، يتعرف
الطلبة على المقطع فقط ، والذين يعرفونه من الكلمة
التوليدية . . ما هي الخطوة التالية بالنسبة للمربي الذى
يؤمن بأن تعلم القراءة والكتابة هي عملية معرفية (والذى
يعرف أيضاً أن هذا ليس، كما هو الحال لدى أفلاطون،
عملية تذكر ما كان قد نسي)؟ . . وهو يدرك أن عليه أن

يزود الطلبة بمعلومات، جديدة.. ولكنه يعرف أيضاً أن عليه أن يقدم المادة لهم على أنها مشكلة.. وهكذا يطرح سؤالين:

أ- هل لهذه القطع PIECES (لقد سمى الطلبة
5- البرازيليون هذه المقاطع قطعاً PIECES وليس هناك سبباً
يرغمهم على أن يسموها مقاطع SYLLABLES شيئاً يجعلها
متشابهة وشيئاً يجعلها مختلفة؟)..

وبعد لحظات تشاهد فيها المجموعة شريحة SLIDE في
صمت، يقول شخص كلها تبدأ بنفس الكيفية، ولكنها
تنتهي بشكل مختلف ..

ب- في هذه اللحظة ، يسأل المربي سؤالاً آخر : إذا
كانت كلها تبدأ بنفس الكيفية ولكنها تنتهي مختلفة ، فهل
يمكننا أن نسميها كلها FA مرة أخرى صمت قصير ، ثم لا
NO .

وعند هذه اللحظة فقط، يقوم المربي وقد أعد المربي
المتعلمين نقدياً للمعلومات ، بتقديم المعلومات ولما كانت
قد سبقتها مشكلة . فالمعلومات ليست مجرد هدية ..

6- ثم تأتي أسرة FAMILY المقطع الثاني للكلمة ، VA , VE
VS, VO, VU يكرر المربي العملية.. وفوراً يقول بعض
المتعلمين VA, VE, VI, VO, VU .

7- أسرة المقطع الثالث LA , LE , LI , LO , LU وتسمى الشريحة SLIDE شريحة الاكتشاف SLIDE OF DISCOVERY وهو عبارة صاغها الأستاذ AURENICE CARDOSO مساعدنا عندما أشرفنا على إدارة المشروع القومي لتعليم الكبار في البرازيل NATIONAL PLANT FOR ADULT LITERACY IN BRAZIL يقترح المربي قراءة أفقية وعمودية للشريحة SLIDE ويقوى هذا فهم المتعلمين للأصوات المعتلة A , E , O , U . VOWEL SOUND ثم يسأل المربي المتعلمين هل تعتقدون أننا نستطيع أن نخلق شيئاً من هذه القطع ؟ .. (أبدأ لا نقل هل تعتقد أنك تستطيع (YOU) .

هذه هي اللحظة الحاسمة للتعلم .. فهي اللحظة التي يكتشف فيها الذين يتعلمون القراءة والكتابة التركيز المقاطعي SYLLABIC COMPOSITIPON للكلمات في لغتهم ..

وبعد الصمت المقلق DISCONCELYNG أحياناً للمربي الذي تعوزه الخبرة يبدأ المتعلمون واحداً واحداً، في اكتشاف كلمات لغتهم وذلك بوضع ترميز المقاطع مع بعضها في تركيبات مختلفة: يقول أحدهم FAVELA ويقول آخر FAVO , FALE , FQLO , VIVQ , VALA , VALE. LI , LUVA , FIVELA , CTE ... , FALAVA , VIVO , VIVE , . VEVLA , VELE , LAVA , VILA , FAVA , FE

ولا يشكل COMBINE المتعلمون الكلمة التوليدية الثانية من

بينها وحسب بل بمقاطع الكلمة الأولى . . ومن ثم فما أن يعرف المتعلمون خمس أو ست كلمات توليدية حتى يستطيعون كتابة ملاحظات COMBINE مختصرة . . وعلى أى حال يستمرون فى نفس الوقت فى مناقشة البيئة الحقيقية REAL وتحليلها نقدياً كما هى مرسومة فى الترميزات .

وهذا ما تعجز عن فعله الكتب الابتدائية PREMIERS . . ذلك أن مؤلفى الكتب الابتدائية ، كما أشرنا يختارون الكلمات التوليدية وفقاً لأهوائهم LIKING فهم الذين يفككونها DECOMPOSE وهم الذين يعيدون تجميع RECOMBINE مقاطعها لتكوين كلمات جديدة . . وبهذه الكلمات يطورون EVOLVE بأنفسهم العبارات التى تعكس ECHO تلك التى كنا قد اقتبسناها .

رأت أيضا العنب (EVA SAW THE GRAPE) EVA VII A UNA

جناح الطير . . (THE BIRDS WING) A QSA E DEE AUE

مكتبة جامعة القاهرة

المجلس الأعلى
للثقافة والفنون

الفهرس

5	تقديم
13	المقدمة
21	الفصل الأول: عملية تعليم الكبار كعمل ثقافى من أجل الحرية
59	الفصل الثانى: العمل الثقافى والتوعية
103	الهوامش
117	ملحق

المؤلف

كان الأستاذ (باولو فريري) زميلاً بمركز دراسات التنمية والتغيير الاجتماعى وأستاذاً زائراً لدى جامعة هارفارد (الولايات المتحدة) بمركز دراسات التربية والتنمية . كما عمل مستشاراً خاصاً بمكتب التربية التابع للمجلس الكنيسى العالمى فى جنيف . وعمل فى تشيلى كمستشار بمعهد الإصلاح الزراعى للأبحاث والتدريب وكذلك أستاذاً بجامعة تشيلى . وقبل ذلك كان وزيراً للتربية ومنسقاً عاماً للخطة الوطنية لمحو الأمية فى البرازيل . .

صدر كتابه الأول فى البرازيل عام 1967 م ، بعنوان «التربية كممارسة للتحرر» وكان آخر كتاب له هو «بيداغوجيا المضطهدين» قام المترجم بنقله إلى العربية عام 1984 م ، عن الطبعة الإنجليزية التى صدرت عام 1970 م . له أبحاث أخرى

متطورة في التربية مثل «الحرية في أمريكا اللاتينية» والذي نشر
عام 1970 م ضمن دراسا بعنوان «حقوق الإنسان والتحرر في
الأمريكتين» وقد حرر مادته الأستاذ (لويس كولتز) ، ثم التقرير
السنوي الذي أعده عن أنشطته عام 1968 م .

مكتبة
الأمريكتين



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر